بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الألم والأمل :

د. محمد علي البار

العجيب أن كلمة ألم وكلمة أمل تحتوي على نفس الحروف : ألف لام ميم . وسورة البقرة تبدأ {**الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ** }[سورة البقرة 1-2] والحروف المقطعة في بداية كثيرمن السور من اسرار القرآن . واختلف فيها المفسرون، وأكثرهم قال انها تحتوي على اسرار لا يعلمها الا الله . ومنهم من ذكر بعض ما فتح الله عليه فيها ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والانسان لا ينفك عن الآلم وعن الابتلاء ، وتتكون مناطق الاحساس بالألم في المناطق المخية العليا وبما تحتها من المناطق ، في فترة مبكرة في الانسان حيث تبدأ في الظهور في الاسبوع العشرين من حياة الجنين (بحساب أطباء التوليد) أو بعد تجاوز المائة والعشرين يوما التي حددها الرسول ﷺ لنفخ الروح(سنشرح هذا الموضوع في فصل خاص)

والجنين بعد نفخ الروح يشعر بالألم ويتفاعل حتى مع عواطف أمه بما يصل اليه من دمها من هرمونات ومواد كيماوية معقدّة مرتبطة بالألم أو الأمل والاحساس بالرضا أو القلق . (أيضا سنشرح ذلك فيما بعد).

ولا يخرج الطفل من الرحم الا بالطلق ، وهو من أشد أنواع الألم ، ولكن هذا الألم يهون بما تشعر به هذه الأم من سعادة عندما ترى وليدها بجانبها ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى ان تنهمر عليها مواد مورفينية دماغية ، تخفف هذه الالام المبّرحة . كما ان مادة السيروتنين (Serotonin) والدوبامين(Dopamine) التي تدعى أحيانا هرمون السعادة ، تنهمر في لحظات الولادة ، وذلك من لطف الله سبحانه وتعالى وكرمه ، رأفة ورحمة بهذه الوالدة {حملته أمه كرُها ووضعته كرها} [سورة الاحقاف :15] .

والطفل ذاته عندما يخرج من عنق الرحم الذي يتسع من خرم ابرة الى ما يصل الى خمسة أصابع ينحشر ويألم اثناء خروجه ، ولولا الطاف الله سبحانه وتعالى وتهيئته لعمليات فسيولوجية عديدة ومواد مزلقة (ماء السلى) وانفجار جيب المياه لما كانت هناك ولادة طبيعية .

وأول ما يخرج الى الدنيا من عالمه الضيق في الرحم ، تدخل كميات كبيرة من الهواء الى رئتيه فيشعر بألم شديد يعبر عنه بصراخ المولود ، وسببه دخول كمية كبيرة من الهواء الى جهازه التنفسي . وهو ما عبرّ عنه الفقهاء بالاستهلال صارخا ، حتى قالوا إذا لم يستهل صارخا لا تكتب له حياة حتى يستهّل .

فالصراخ والألم مرتبطان منذ أول لحظة الولادة بالحياة . وهكذا يرتبط الألم بالأمل منذ لحظة الخروج الى هذه الدنيا وساعة الولادة .

وانظر الى هذه الأم التي عانت كل تلك المعاناة في الحمل والولادة ، وشفتيها تفتّرعن ابتسامة ، وهي تنظر الى وليدها رغم الاهوال والمتاعب ... كل تلك الألام تزول ويحلّ محلها الشعور الغامر بالسعادة من الزوج والاهل والاحباب ...

ويعاني الطفل المولود وهو يحاول الوصول الى حلمة الثدي ، كما تعاني الأم وخاصة اذا كانت بكرية (أي أول ولادة لها) في كيفية ارضاعه ... ولهذا وجب على الطاقم الطبي ان يدرّبها على الرضاعة أثناء فترة الحمل الأخيرة وقد تعاني بعض النساء من عيوب في الحلمة فيمكن اصلاحها قبل الولادة بشيء من التدريب الذي تقوم به الممرضة المختصة . وهو أمر كان مهملا من قبل مما يؤدي أحيانا الى عزوف الوالدة عن الرضاعة ، مع أهميتها الكبرى لها وللطفل وخاصة ان اللبا(وهو اللبن الذي يفرز بعد الولادة مباشرة ولمدة ثلاثة أيام تقريبا) يحتوي على العديد من الخلايا الهامة والمواد المعقّدة والبسيطة التي تساهم في تكوين مناعة الطفل ضد مختلف الامراض . ولهذا أوجب الامام الشافعي على الام ارضاع مولودها مباشرة بعد الولادة . واعتبر اللبا مادة هامة للمولود على عكس كثير من الاطباء والفقهاء في زمنه .

ولا شك ان مراحل الطفزلة الباكرة شديدة الخطورة على حياة هذا المولود ، وبفضل الله تعالى ، ثم بفضل التقدم الطبي فقد انخفضت وفيات المواليد في السنة الاولى من العمر من مائة لكل مولود من كل ألف في بداية القرن العشرين (بما في ذلك الدول المتقدمة) الى ما بين ثلاثة الى سبعة في بداية القرن الواحد والعشرين في كثير من الدول المتقدمة . وقد انخفضت وفيات الاطفال في السنة الاولى من العمر وفي الخمس سنوات انخفاضا كبيرا في كل دول العالم بدرجات متفاوته ولا تزال افغانستان واليمن ودول افريقيا جنوب الصحراء الكبرى تعاني من مستويات غير مقبولة لوفيات الاطفال .

تكثر المعاناة في الطفولة بسبب أمراضها ، وبسبب الحروب الضروس المنتشرة في كثير من دول العالم ، وخاصة عالمنا العربي والاسلامي فتجعل المعاناة أشد وأقسى ، لتسرق البسمة والامل من وجوه هؤلاء الاطفال الابرياء. ومما يذيب القلب حسرة وكمدا أن يموت الملايين من هؤلاء الاطفال في كثير من بلدان العالم بسبب الجوع والمرض ووسائل التدمير الحديثة (أطفال المجاعات والحروب في أفريقيا وسوريا واليمن وغيرها) ..

وسنناقش في فصول قادمة ألام الطفولة ومتاعب المراهقة وآمالها والامها ... ثم ندلف الى المعاناة في مرحلة الشباب والنضج ... ثم معاناة تكوين الاسرة والحفاظ عليها .. وسنخصص للمرأة فصلا عن آلامها ومتاعبها وأسباب تعاستها وسعادتها .. وارتباط الألم بالألم في كل تلك المراحل .

ثم ندلف الى الكهولة والشيخوخة الى أرذل العمر وما يكتنفها من آلام ومتاعب وما يخفّف تلك الآلام والمصاعب ، إذا وجدت بيئة حاضنة واسرة حانية ، وأبناء وبنات بررة ، وأحفاد يعيدون البسمة والأمل للجد والجدة . حقا {لقد خلقنا الانسان في كبد}[البلد : 4] .

فهو في مكابدة ومشاقّ منذ لحظة التكوين الى لحظة الميلاد والخروج من ضسق الرحم الى سعة الدنيا بالنسبة لما كان عليه ، ثم بعد ذلك ما يكتنفه من آلام وأوصاب حتى يأتيه الأجل ويخرج من ضيق الدنيا الى سعة العالم الآخر ورحمة الرب الرحيم .

أشد الناس بلاء

أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

وأول الانبياء هو آدم عليه السلام . وهو أبو البشر ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وامر الملائكة المكرمين بالسجود له ، بعد أن كرّمه الله بالعلم ، واستكبر ابليس اللعين عن السجود لآدم .. قال تعالى : **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}** [سورة الاعراف :11 – 13] . فامتلأ ابليس غيظا وتكبرا على آدم وذريته فاحتال على آدم حتى اخرجه وزوجته من الجنة . قال تعالى **{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }**[سورة البقرة 35-37] .

وانخدع آدم وزوجته بابليس حين قاسمهما بالله انه ناصح لهما وانهما اذا اكلا من الشجرة المحرّمة سيكونا خالدين مثل الملائكة . قال تعالى **{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24)قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}**[الاعراف : 20-25] .

وقد وصف الحبيب الامام عبد الله الحداد في قصيدته التائية قصة آدم عليه السلام وكيف احتال عليه الشيطان حتى أكل من الشجرة المحرّمة فأهبطا من الجنة الى ارض المعاناة والشقاء وأصابهم همّ وغمّ لا حدود له ... قال الحداد :

فلـما ألمَّا بالخطيئـــة أهبطـا ... من الجنة العليا الى دار وحشةِ
وحلَّ بهم كرب عظيم وحسرة ... وحزن مقيم في انقطاع وغربةِ
الـــى أن تلـقَّى آدم من إلـهه ... مـن الكلمات الموجبات لتوبـة
فتـــاب عليه واجتبـــاه وخصّه ... وأكـرمه فضلا بأمر الخلافـة

ومع هذا التكريم الا أن الابتلاء لم يتوقف فقد قام قابيل رمز الشر ، بقتل أخيه هابيل رمز الخير بدون سبب، سوى الغلّ والحسد ، قال تعالى : { **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ }** [سورة المائدة : 27-30].

ولم يعرف قابيل كيف يتخلص من جثة أخيه حتى رأى غرابا يبحث في الارض ليواري جثة غراب آخر: {**قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**}[سورة المائدة 31-32].

لهذا كانت جريمة قتل انسان بريء من أبشع الجرائم .. قال تعالى {**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** }[النساء : 93].

ولهذا كان على ابن آدم قابيل الذي قتل أخاه كفل من كل جريمة قتل ونعت في الارض لانه سنّ سُنة سيئة ، بقتل أخيه الطاهر البريء دون ذنب جناه .

وهكذا كانت الابتلاءات والألام تترى على أدم عليه السلام وعلى زوجته حواء فامتحنا بالاكل من الشجرة ثم الاخراج من الجنة والاهباط الى الارض ليعملا ويكدّا فيها . ثم جريمة قتل بشعة من أخ لأخيه دون جريرة سوى الحقد والحسد لأن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر . وفي كل ابتلاء وسقوط ألام ودموع وهمٌّ وغمٌّ ، ثم توبة من الله التواب الرحيم ... وهي دروس لآدم وبنيه من بعده الى يوم القيامة ، فالدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء .

قال تعالى : {**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** }[العنكبوت : 2] .

وقال تعالى : {**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**}[البقرة : 155-157].

نوح عليه السلام

واستمر الابتلاء من بعد آدم عليه السلام الى نوح عليه السلام الذي لبث في قومه ألف ستة إلا خمسين عاما وبذل لهم النصح ليلا ونهارا ، سرّا وعلانية فلم يزدهم ذلك الا عتوا وتجبرا وطغيانا وسخرية من نوح ومن آمن معه . قال نوح عليه السلام {**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** }[نوح : 5-14] ، فلما يأس منهم قال : {**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا** }[نوح : 26-28] .

وتكررت القصة بعد ذلك مع هود عليه السلام ثم مع صالح وابراهيم ولوط وشعيب وغيرهم من الانبياء .

كلما أتاهم رسول من ربهم كذبوه وحقرّوه وآذوا اتباعه وعذّبوهم وسخروا منهم . وقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين . وقالوا : ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ... وكم تحمّل هؤلاء الانبياء الكرام وأتباعهم من المؤمنين والمؤمنات من العذاب والألام الجسدية والنفسية حتى يأذن الله بالانتصار لأوليائه .

ابراهيم عليه السلام

ومع هذا لم يخلُ نبي من الانبياء ولا رسول من رسل الله الكرام من الابتلاء الشديد . فكم أبتلي ابو الانبياء ابراهيم عليه السلام ، وكم صبر على والده الكافر ، وكم دعاه بأرق الألفاظ وأعذبها ... وكم صبر على قومه وكيف جادلهم ليتركوا عبادة الشمس والقمر والنجوم والاوثان العديدة ، فقالوا انصروا آلهتكم وارادوا احراقه بالنار فجعلها الله بردا وسلاما عليه . وكم جادل النمروذ الطاغية الجبار الذي قال أنا أحي وأميت فقال له : **{فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**[البقرة : 258] .

فتركهم ابراهيم عليه السلام **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}** [الصافات : 99-107] ، وأي بلاء أشد من أن يذبح فلذة كبده الذي لم يأته الا بعد أن شاخَ وهو ليس أي غلام بل هو أيضا نبي قد عرف ان رؤيا الانبياء حق .(يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين) . وأي امتحان أشدَّ من هذا الامتحان وأي بلاء أشدُّ من هذا البلاء ، للأب والابن . وإن كان بلاء الأب في ذلك أعظم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا كيفية الصبر على أشد البلاء بما يقوم به أقرب الناس اليه وأحبهم له وأكرمهم لديه . ها هو خليل الرحمن الذي لم يبال بالجبابرة من قومه ولا برميهم له في النار حتى ان جبريل أتاه وهو موثق في المنجنيق ليرموه في النار العظيمة ، يقول له الك حاجة يا ابراهيم ؟ فيقول خليل الرحمن اما لك فلا ، ويجعل حاجته ودعاءه المباشر لله سبحانه وتعالى .

إن الابتلاء من سنن الله الكونية طالما كنّا في هذه الارض ، وأشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالأمثل .. وهم المثل الأعلى في العبودية لله والاخلاص والحبّ له والاذعان لكل ما يأمر به سبحانه وتعالى .

وكم عانى **موسى** وقومه من فرعون . ثم كم عانى موسى من قومه بني اسرائيل الذين آذوه أشد الايذاء . وكم قتلوا من الانبياء وكم كذّبوا منهم . **{فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}**[البقرة : 87] .

وكم عانى **المسيح** عليه السلام من قومه بني اسرائيل وكم افتروا على **أمه الطاهرة مريم** عليها السلام فاتهموها بالزنا مع العسكري الروماني باندرا { **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** } [آل عمران : 42-43]،

وقال تعالى {**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [آل عمران 45-49]

وكم آذى بنو اسرائيل أنبيائهم وافتروا عليهم ابتداء من موسى عليه السلام مرورا بداود وسليمان واليآس واليسع و زكريا ويحيى الى عيسى عليهم السلام . وقد قال الله عنهم {**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** } [النساء : 155-158] .

وقد زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله .. ولكن في العصور الحديثة أنكروا قولهم ذلك رغم أن الأناجيل (الحالية) تؤكد قولهم للحاكم الروماني بيلاطس : دمه علينا وعلى أولادنا من بعدنا عندما قال لهم اني لا أجد شيئا في هذا البار (أي عيسى عليه السلام) .

واستطاعوا أن يجعلوا الكنيسة الكاثوليكية تبرؤهم من هذه الجريمة كما أنهم قد استطاعوا ان يؤثروا على الكنائس البروستانتيه وأن يحولوا هذه الجريمة الى الرومان .

ومع هذا فقد استطاع النصارى مؤخرا أن يخرجوا فيلم عذابات المسيح ، والفيلم يصور ما جاء في الاناجيل من عذابات المسيح في الاسبوع الاخير من حياته قبل صلبه كما يزعمون . وعلى أية حال فإن المسيح وأتباعه واجهوا العذاب الشديد من هؤلاء اليهود . كما أنهم اتهموا أمه مريم العذراء بالزنا .

وتاريخهم مع الانبياء أجمعين أسود ، قال تعالى: {**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**}[البقرة : 87] . ولم يتركوا نبيا من أنبياءهم الا وآذوه أذية بالغة ابتداء من موسى عليه السلام إلى أخر أنبيائهم عيسى عليه السلام ، مرورا بالعديد من الانبياء مثل يوشع وداود وسليمان والياس وزكريا ويحيى .... الخ فهم قتلة الانبياء وراجموا المرسلين .

أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام يضرب به المثل في الصبر على الابتلاء فيقال : صبر أيوب .

وأيوب عليه السلام من نسل العيص (عيسو) بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام والعيص (عيسو) هو شقيق يعقوب التوأم ، إذ نزل هو أولا ثم نزل يعقوب ماسكا بعقبه كما ترويه التوراة ، ولذا سمي يعقوب كما جاء في التوراة .

وقد ذكر المؤرخون الأوربيون ومنهم بنيامين جرمين والأديب الفرنسي فولتير أن أيوب أقدم من موسى (عليهم السلام) وأن أيوب عاش في حدود 1520 قبل الميلاد وأن سفر أيوب كتب قبل التوراة بقرون عدة ، وأنه كتب باللغة الكلدانية أصلا ثم ترجم الى اللغة العبرية وغيرها .

وقصة أيوب في العهد القديم فيها تجديف ، بل وزيغ وكفر من قبل أيوب عليه السلام ، وهو أمر متكرر على جميع الأنبياء والمرسلين المذكورين في هذا الكتاب المحرّف تحريفا شديدا .

ويأتي ذكر أيوب عليه السلام في القرآن الكريم في أنصع صورة لهذا العبد الصابر الشديد الايمان بربه وجوده وكرمه مهما طالت فترة الامتحان

قال تعالى : {**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ** }[ص : 41-44].

وقال تعالى : { **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** }[الانبياء : 83-84].

وفي سفر أيوب في العهد القديم يبدأ السفر بذكر أيوب أنه كان كاملا مع الله ومع الناس فأعطاه الله المزيد من المال والاولاد والزوجة المحبة المطيعة ، والاصدقاء المحبين الناصحين . ثم يقول السفر المزعوم : " ويدخل الشيطان في مجلس الرب ويذكر الرب فضائل عبده أيوب ولكن الشيطان يقول له : هل مجانا يتقي الله أيوب ؟ أليس أنك سيّجب (أي وضعت سياجا) حوله يحميه ويحمي ثروته وأولاده فإذا بسطت يدك وأذهبت ماله فسيجدّف في وجهك . فأذن له الرب بأن يذهب ماله كله . فذهب الشيطان فأصاب ماله كله وأبقاره وأغنامه وجميع ما هو له . فقام أيوب وخرّ على الارض وقال : عريانا خرجت من بطن أمي ، وعريانا أعود الى هناك ... الربُّ أخذ فليكن اسم الرب مباركا .

ويعود الشيطان الى مجلس أبناء الرب (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) ويسأل الرب الشيطان كيف فعل بأيوب ؟ وماذا قال أيوب ؟ ولكن الشيطان ذكر أن أيوب لا يزال لديه الأبناء وكثير من الأموال . فيأذن له الرب في أن يبسط يده على أولاد أيوب وما بقي من ماله . ولكن أيوب أيضا يسقط على الارض ويجز شعر رأسه ويمزق جبّته (دليل على الجزع وعدم الصبر) ومع ذلك يقول : الربَّ أعطى والربُّ أخذ فليكن اسم الرب مباركا .

ومرة أخرى يعود الشيطان الى مجلس الرب ... ومدح الرب أيوب فهو رجل كامل ومستقيم ولم تخرجه المصائب في ماله وولده عن قوله الرب أعطى والرب أخذ ، فيقول الشيطان اسمح لي بأن أوصيبه في بدنه وآخذ من لحمه وعظمه ، فيسمح له الربُّ بذلك . وضرب الشيطان أيوب بقرح رديء من باطن قدمه الى هامته ...

وجاء أصحاب أيوب الثلاثة ليعزّوه في مصيبته الجديدة ، فبكوا ومزّقوا ثيابهم وذروّا التراب فوق رؤوسهم ولكن أيوب لم يكلم أحداً منهم سبعة أيام بلياليها . ثم تكلم وقال : ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه !! ولعن زمانه ويومه الذي ولد فيه وقال لِمَ لمْ أمتْ في رحم أمي ؟ ولمَ لم أسلم روحي عندما ولدت ولمَ التقمت ثدي أمي حتى أرضع ، وبدا بالتجديف على الرب ذاته الذي يعطي الاشقياء والكفرة والظلمة والفجرة ويبرّهم ، ويأتي الى البررة فيمرّر حياتهم

دون ذنب جنوه ولا جريمة اقترفوها .. ويستمر في هذيانه وطغيانه موبخا للرب الظالم (حسب زعمهم الكاذب) وحاول أصحاب أيوب واحداً بعد الأخر أن يردّ أيوب الى الصواب ، وبذكره بما كان منه في السابق ، وأنه كان الرجل الكامل .ولكن هيهات فالاحبار الذين وضعوا هذا السفر أصرّوا على تشويه صورة أيوب عليه السلام حسب تصوراتهم .

ويرد أيوب على تقريع أصحابه لأنهم لم يعانوا مثله ، أما هو فقد كان بارا وصالحا فلم يرض الرب الا أن يعذّبه أشد العذاب ... ثم ينفجر ويقول ابن هو الرب ذاته لأخاصمه وأكلمه لماذا يعذبني هذا العذاب ... ثم يذهب كاتب السفر الى ابعد من ذلك فيقول على لسان أيوب أنه ذهب يبحث عن الرب فلم يجده .. إذا لا بد أن يتكلم لأنه لم يعد يخاف الرب: ليرفع عني عصاه ، ولا يبغتني رعبه . إذا تكلم لا أخافه ".

ويزيد في التمرد والتجديف فيقول أنه ذهب يبحث عن الله فلم يجده لا في الشمال ولا في الجنوب ولا في الشرق ولا في الغرب ... اين هو الله إذن ؟ ... كفر صريح ولهذا فإن سفر أيوب يعتبر قمة الاسفار الأدبية عند اليهود وأتباعهم في الغرب وهو المثل الأعلى للكتاب االذين يعيشون الأزمات المتتالية ، والذين لا يعرفون لهذا الرب وجودا ، إن كان له وجود . فهذا الظلم والأذى وطغيان المتجبرين ليس له حدود . فأين هو هذا الرب الذي يمدّ هؤلاء المجرمين ويحارب كل هؤلاء الأخيار والابرار . ولا يوجد في التوراة الحالية كلها ذكر لليوم الآخر . والمهم هو الحياة الدنيا ولا وجود للآخرة. ولهذا يكره اليهود ومن تبعهم ذكر الموت **{يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّر}** [البقرة :96] .

وهكذا حوّل أحبار اليهود وأتباعم الصورة الوضئية لأيوب المؤمن الصابر الى صورة متمرد كافر .

النبي يونس بن متى عليه السلام

يونس بن متى نبي كريم ، وصفه الله تعالى بقوله : { **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**}[الصافات : 139] ، ثم قصّ الله سبحانه وتعالى قصته في سور عديدة من القرآن الكريم (يونس ، الانبياء ، الصافات ، والقلم) .

بعث الله يونس عليه السلام الى اهل نينوى من أرض الموصل في شمال العراق ، فدعاهم الى الله سبحانه وتعالى فكذبوه وتمرّدوا عليه ولم يؤمن منهم أحد رغم محاولاته العديدة سرّا وجهرا ، ليلا ونهارا ... وضاقت الايام بيونس عليه السلام حتى يأس منهم ، فخرج عليه السلام من تلك القرية الظالمة . ولكنه للأسف لم ينتظر الاذن من ربه في الخروج ، وبلغ به اليأس والقنوط من عدم استجابتهم أنه لن يؤمن منهم أحد قطّ . فذكر الله ذلك في كتابه العزيز حيث قال : **{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ }**[الأنبياء :87] ، أي ظن أننا لن نقدّر عليه لوما فأدبّه ربه تأديبا . حيث يأس منهم ، ولم ينتظر بهم أمر ربّه ، فكان لذلك مستحقا للتأديب من ربّه ، مع كرامته عند ربه . إذ لا مجال لليأس من رحمة الله .

قال تعالى : **{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141)فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}**[الصافات : 139-148].

وهكذا هرب يونس عليه السلام من قوته الى مكان قريب من البحر ، فقرر أن يركب السفينة الميليئة بركابها وعفشهم . فمالبثوا الا قليلا حتى مادت بهم السفينة ، فقال ربان السفينة لا بد من اخراج شخص ما ، فأخرجوا القرعة فوقعت ثلاث مرات علي يونس عليه السلام ، فالقوه في البحر ، فتلقفه حوت ضخم (whale) والتقمه الحوت (ومن أسمائه النون) .. فوجد من الكرب والضيق أضعاف أضعاف ما كان يجده من قومه . قال تعالى **{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ }**[الصافات : 143-144] ، وفي سورة الانبياء قال تعالى : **{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ }** [الانبياء : 87 -88]

وقال تعالى لمحمد ﷺ : **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}**[القلم : 48 - 50] .

وهكذا قصَّ الله علينا قصة نبي من أنبيائه الكرام وكيف فقد الأمل في إيمان قومه بعد أن لبث فيهم عمرا وهو يدعوهم الى الله سرا وجهرا ، ليلا ونهارا ، وبلين لهم مرة ويشتد عليهم أخرى ، وهم في ذلك كله يسخرون منه ويرفضون دعوته حتى بلغ به اليأس منهم أن خرج مغاضبا لهم وهو يظن ان الله لن يؤدبه على تركه لهم دون إذن من ربه . فوجد من الشدّة والبلاء وصعوبة التنفس (وهو مكظوم) في بطن الحوت ، ما الله به عليم . وزاد الكرب عليه وهو في ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر العميق – وظلمة الليل البهيم ، فلجأ الى الربُ الكريم مسبحا له معترفا بتقصيره وظلمه لنفسه : **{فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}** [الانبياء : 87 - 88] .

وهكذا اشتد الكرب على يونس عليه السلام ولكنه لم يفتر عن قوله : (لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) .. ولم يقنط يونس عليه السلام من رحمة ربه ، فهو في أشد الكرب والغم وهو مكظوم لا يستطيع ان يتنفس الا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وسمع الله سبحانه وتعالى أنين يونس ودعواته فاستجاب له ونجاه من الغم والكرب فألقاه الحوت بأمر ربه على الشاطئ وهو لا يقدر على الحركة وانبت عليه شجرة من يقطين بخصائصها العجيبة التي ظلّلته بأوراقها ولئمت جراحه ... وسخر له ظبية كما يقول أهل التفسير يشرب من لبنها حتى قوى بدنه ، فتحرك الى قومه نادما على تركه لهم ، فإذا المدينة بأكملها تستقبله فرحة به نادمة على عصيانها وكفرها . قال تعالى : **{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}** [يونس : 98] ، وأقبل عليه قومه وهم (مائة ألف أو يزيدون) قال أهل التفسير ، بل يزيدون { **فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**}[الصافات : 148] .

وحتى لا يظن أحد من المؤمنين أن ما حدث ليونس بن متى عليه السلام ينقص من قدره ولو قليلا ، قال صلى الله عليه وسلم : " ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " أخرجه البخاري ومسلم وأحمد . وفي رواية للبخاري : " ولا أقول أن أحداً أفضل من يونس بن متى " . وقال العلماء أن رسول الله ﷺ قال ذلك من باب التواضع وهضم النفس ، ولا شك أنه أفضل خلق الله . وقيل أنه قال ذلك قبل أن يعلمه الله انه أفضل خلق الله أجمعين .

وعندما ذهب النبي الى الطائف بعد أن بلغ الاذى مداه من قريش ، بعد وفاة خديجة رضى الله عنها وعمه أبو طالب الذي كان ينافح عنه (وهو عام الحزن) . وجد الأذى أشد وأعتى من ثقيف في الطائف حتى لجأ الى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ، فلما رأياه على تلك الحالة بعثا له بقطف من عنب مع خادمهما عدّاس . فلما وضع عدّاس العنب بين يديه ، قال النبي ﷺ : بسم الله قبل أن يأكل ، فاستغرب ذلك عداس وقال : لم أسمع أحدا يقول ذلك في هذه البلاد . فسأله النبي ﷺ : من أي البلاد أنت ؟ فقال : من نينوى ، فقال النبي ﷺ : من بلد العبد الصالح يونس ؟ فقال عداس : وما أدراك من يونس ؟ فقال : ذاك نبي وأنا نبي فأكبَّ عداس على قدمي النبي يقبّلها[1]

وقد لاقى الانبياء عليهم السلام من أقوامهم من التكذيب والأذى ما يفوق الوصف ... وكان يونس بن متى قد أوذي أذى بالغا ، ويأس من اسلام قومه ، فخرج مغاضبا لهم دون إذن من ربه ، فأدبه الله تعالى فجعله في بطن الحوت حتى يسمع نداءه الخافت في تلك الظلمات ، فاستجاب له وأخرجه وكرّمه وأعاده الى قومه الذين أسلموا بكاملهم .

وقد صبر رسول الله ﷺ على أذى قومه وعرض عليه الملك أن يطبق عليهم الأخشبين (جبلا مكة) فأبى ذلك وأبى ان يدعو عليهم وقال اني لارجو أن يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا . فكان الامر كما قال ﷺ . وهو الذي قال عنه ربه : {**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**} [الانبياء : 107] ، فصلاه الله وسلامه على أنبياء الله أجمعين .

محمد ﷺ وأتباعه

لقد اشتد الاذى برسول الله ﷺ وأتباعه بعد ان أظهر دعوته فيهم وكان أكثر أتباعه من الضعفاء والعبيد والنساء فاشتد بهم الأذى ، ومع هذا فقد أذت قريش محمداً ﷺ أشد الأذى النفسي والبدني وقالت عنه ساحر كما قالت عنه أنه مجنون .. وكان بعضهم مثل أمية بن خلف يهزأ به ويلمزه وفيه نزل قوله تعالى {**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**} [الهمزة: 1] .

وكان عمه أبو لهب يقول له :" تباً لك ألهذا جمعتنا؟" عندما دعاهم ليسمعوا كلام الله . ثم قام هذا العدو يقول لوفود الحجاج الذين كان الرسول ﷺ يذهب الى اماكنهم ويقول لهم : " أنا عمه وأعرف الناس به .. انه كذّاب ...وكانت امرأته أم جميل (أخت أبي سفيان) تضع الشوك في طريقه ، كما قام أبو لهب بأمر ابنيه بفسخ عقد زواجهما من بنتي النبي ﷺ (قبل الدخول) ... لهذا كله نزل فيه قرآن يتلى الى يوم القيامة {**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ(5)**}[المسد : 1-5] وكان دور ابي جهل بالغا في الأذى للرسول ﷺ وللضعفة من أصحابه خاصة .. وقام عقبة بن أبي معبط بوضع فرث جزور على ظهره وهو ساجد يصلي بجوار الكعبة حتى جاءت فاطمة رضى الله عنها فأزالت الفرث وسبتّهم .. وكان ذلك أشد ايلاما للرسول ﷺ .

وكان كل نفر من قريش يعذب قريبه إذا عرف انه قد أسلم فيحبسه ويعذبه حتى يعود عن اسلامه فمايزيدهم الا اصرارا وتضحية .

---

[1]- (سيرة ابن هشام ج28/1 ، وطبقات ابن سعد ج200/1 ، ومسند الامام أحمد ج325/4 ، ودلائل النبوة لابن نعيم ج290/1. ومختصر السيرة النبوية لسميرة الزائد ج209/1 ، 210 ، والرحيق المختوم للمباركفوري ص 143) .

وكان الموالي والعبيد يتلقون أشد العذاب ومنهم بلال بن رباح الذي كان مولى لأمية بن خلف الجمحي فكان يعذبه أشد العذاب وأقساه ويضعه في الرمضاء عريانا وفوقه الحجارة المحمّاة حتى تسلخ جلده ، كما كان يطوف به في مكة وفي عنقه حبل وهو يضربه ضربا مبرحا ، فإذا تعب من الضرب أُوكل به صبيان مكة ليضربوه ويجرّوه بالحبل، حتى أنقذه أبو بكر رضي الله عنه واشتراه من أمية بن خلف ، فاعتقه .. وكم اعتق أبو بكر رضي الله عنه من هؤلاء الضعفاء المساكين.

وأول من استشهد في الاسلام هي سميّة وهي أم عمار بن ياسر وزوجة ياسر ، وكانت الاسرة كلها تعذب من قبل ابي جهل وقومه ... والرسول ﷺ يمر عليهم فيقول : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة... وقد طعن أبو جهل سمية رضى الله عنها بحربته في قبلها فقتلها لعنه الله .

ثم ثنّى بزوجها ياسر .. فلما اشتدَّ الأذى على عمار ابنهما رضى الله عنه قبل مكرها أن يسبَّ النبي ﷺ وأن يعلن كفره بالاسلام حتى يتركوه . ثم ذهب الى الرسول ﷺ باكيا فقال له الرسول ﷺ كيف تجدك في قلبك ؟ قال : مطمئن بالايمان . قال ﷺ : فإن عادوا فعد .. وفيه نزل قوله تعالى : **{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }**[النحل : 106].

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية وكان المشركون يذيقونه ألوان العذاب حتى لا يستطيع أن يتحرك من شدة العذاب وكانت زئيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن . وكان المشركون يسوموهن أشدّ العذاب .

وكان أكثر أتباع النبي ﷺ مثل اتباع الأنبياء من الضعفاء والاماء والعبيد . والعجيب أن أول من دخل الاسلام قبل كل أحد هي خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ والتي كانت سنده الاول خلال الدعوة في مكة حتى ماتت رضى الله عنها وأرضاها بعد أن أنهكها الحصار الظالم على الرسول ومعه بني هاشم مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب وبنيه .. ومات في ذلك العام بعد الحصار الشديد عمه أبو طالب الذي كان يرعاه ويدافع عنه بأكثر مما يدافع عن نفسه وبنيه . حتى سمى الرسول ﷺ ذلك العام عام الحزن لشدة فقده لزوجته الحبيبة وعمه النصير .

ولما اشتد الاذى بأصحاب محمد ﷺ أذن لمن استطاع منهم الهجرة الى الحبشة فهاجروا الى ملك لا يظلم عنده أحد . وهو النجاشي أصحمة الذي أسلم فيما بعد ... ثم عاد هؤلاء عندما بلغتهم الشائعات أن قريشا كفّت أذاها وأسلم كثير من رجالها . ووجدوا الخبر عاريا عن الصحة ... فاشتد عليهم العذاب وعلى غيرهم فأذن لهم المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه بالهجرة الثانية . وهكذا استمرت قريش في أذاها للنبي ﷺ وعلى أتباعه . بل اشتدَّ الاذى بعد وفاة خديجة الزوجة الحنون وعمه المدافع عنه أبو طالب . فذهب الى الطائف فسلط عليه رجالها الصغار يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين وحتى انهكوه فعاد أدراجه الى مكة ، ولكن كيف يدخلها ، ولا مجير له فيها ولا ناصر .

وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل آتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : لقيتُ من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي علي ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجيبني الى ما أردت ، فانطلقت ، وانا مهموم على وجهي ، فلم استفق الا وانا بقرية الثعالب (يسمى أيضا قرن المنازل) فرفعت رأسي فإذا بسحابة سوداء قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: ان الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني

ملك الجبال ، فسلم علي ثم قال : يا محمد ... إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلا مكة) أي لفعلت . قال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عزّ وجلّ وحده لا يشرك به شيئا (البخاري كتاب بدء الخلق ومسلم باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين)

ودخل رسول الله ﷺ في جوار المطعم بن عدي ، ولما طال الأذى بالمسلمين وخاصة ضعافهم قال خباب بن الارث لرسول الله ﷺ :" الا تستنصر لنا ؟ الا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الارض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنين ، وما يصدّه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمّنَّ هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون " (صحيح البخاري – كتاب المناقب – باب علامات النبوة)

وقد عوض الله النبي عن ذلك الاذى والحزن بوفاة زوجته الوفية خديجة وعمه المدافع عنه والحافظ له بحادثة الاسراء والمعراج ، فرأى من آيات ربه الكبرى ما ذكره الله في سورة النجم وفي سورة الاسراء .

وسمح النبي لأصحابه بالهجرة الى المدينة بعد أن فشا الاسلام في كثير من بيوتها . وآخرّ هجرته حتى جاءه الاذن من السماء فأخذ صديقه ورفيق دربه أبا بكر معه في حادثة الهجرة التي وصفها المولى سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حيث يقول : **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**[التوبة : 40] .

وذلك بعد أن تآمرت قريش على قتله فخرج من بين أيديهم ووضع التراب على رؤوسهم .. وجعل في محل منامه ابن عمه ووصيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن صحابة رسول الله أجمعين .

وبدأت في المدينة دولة الاسلام ، رغم ان عدد المسلمين كان ضئيلا في بداية الامر بالنسبة لعدد اليهود والمنافقين . وتغيّر نوع الاذى في المدينة الى مكر يهود ومؤامراتهم ومكر المنافقين ودسائسهم .

وتتالت الابتلاءات بأنواعها ومن أشدها يوم أحد عندما عاد عبد الله بن أبيّ بثلث الجيش الاسلامي قبل بدء المعركة (كان عدد الجيش ألفا وعاد منهم الى المدينة ثلاثمائة) . ثم وقعت الهزيمة الشديدة بسبب مخالفة الرماة لأوامر المصطفى ﷺ حيث أمرهم بالبقاء في موقعهم على جبل الرماة ولو تخطفتهم الطير ، ولكنهم عندما راوا النصر وراوا المسلمين يحوزون غنائم قريش فاستفزهم الشيطان حتى لا تفوتهم الغنائم (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) . وكان درس أحد قاسيا حيث قتل من الصحابة سبعون على رأسهم حمزة أسد الله واسد رسوله ... وشج رسول الله شجة بالغة ، ونادت قريش أن محمدا قد قتل ففتّ ذلك في عضد المسلمين حتى انهاروا ومع ذلك بقيت مجموعة قليلة تقاتل عن رسول الله حتى انجلت المعركة وانسحبت قريش فرحة بنصرها بعد أن أذلها المسلمون يوم بدر .

ولكن ما ان وصلت قريش حمراء الاسد حتى ندم أبو سفيان وأراد العودة ليستأصل محمدا وصحبه . ولكن الله خذلهم وخاف أن يجتمع المسلمون مرة أخرى فيتحول النصر الذي احرزته قريش الى هزيمة ، فاستأجر أعرابيا ليذهب الى المدينة ليقول لهم ان قريشا قد ندمت على مغادرتها المدينة ، وانها ستقبل لاستئصال محمد وصحبه ... ولما

بلغ الرسول ذلك عزم على الخروج الى حمراء الاسد ليلاقي جيش قريش واشترط ان لا يخرج معه الا من قاتل في احد ، ورفض ان يأتي معه أحد من المنافقين أو غيرهم ممن لم يشترك في معركة أحد وقال تعالى فيهم : {**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**}[آل عمران : 172-175]

وهكذا خرجوا بجراحاتهم وآلامهم ومصابهم العظيم ليواجهوا قريشا مرة أخرى فنكص أبو سفيان وانسحب من حمراء الاسد قافلا الى مكة مكتفيا بما حققه من نصر بعد هزيمة ساحقة .

وكانت دروس أحد لا حصر لها . وتعلّم المؤمنون أن مخالفة أوامر النبي ﷺ تأتي بالخسران . وأن الله سبحانه وتعالى يبتليهم بالنصر تارة وبالهزائم تارة أخرى قال تعالى { **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**}[آل عمران 152-154] ودروس أحد لا حصر لها وفيها رسائل دكتوراه وماجستير . وهي تستحق ذلك وأكثر منه .

وكانت آخر المعارك الهامة التي زُلزل فيها المؤمنون زلزالا شديدا ، هي موقعة الاحزاب (الخندق) . وكانت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة ، فقد تآمر اليهود بعد معركة بني النضير واجلاؤهم منها فتجمعوا في خيبر وارسلوا وفودهم الى قريش يحثونها على مهاجمة الرسول صى الله عليه وسلم في المدينة ، ويعدونهم بالنصرة والتأييد بالمال والرجال . ثم ذهبت يهود الى غطفان حتى ينضموا الى يهود وقريش في محاربة محمد ﷺ والقضاء عليه نهائيا . ثم طافوا قبائل العرب فاستجاب لهم جم غفير، منهم بنو سُليم وبنو أسد وبنو فزاره وبنو مرة وقبائل غطفان ووصل جمعهم الى عشرة آلاف مقاتل وانضمت اليهم يهود قريظة الذين كانو على عهد من النبي فنقضوا العهد. فكانت بذلك أشد خطرا على المسلمين لانهم من داخل المدينة ذاتها .

واشار سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفروا الخندق ففوجئت قريش وقبائل العرب بأمر لم يعهدوه من قبل . وأرادوا عبور الخندق فلم يستطيعوا ، سوى بعض الفرسان الذين طلبوا المبارزة وخاصة عمرو بن ود الذي خرج له علي بن طالب وقضى عليه بعد ان تردد كثير من الصحابة في الخروج لما اشتهر به من مقدرته القتالية الفائقة .

وقد قاسى المسلمون من الجوع والخوف اثناء حفر الخندق واثناء الحصار وكان خوف الرسول صلى الله عليه وسلم على الذراري والنساء من خيانة يهود قريظة شديدا . وبالفعل بدأوا يتسللون الى مواقع النساء ، ولكن صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ أخذت عمودا فقتلت اليهودي ، فكان قتله درسا لليهود حتى لا يعاودوا الكرّة .

ووصف الله سبحانه وتعالى حال المسلمين في هذه الوقعة قال تعالى : **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20)لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا }**[الاحزاب : 9 - 27] .

وذكر الله سبحانه وتعالى هذه المعركة وكثيرا من تفاصيلها وكيف انتهت بريح قلعت خيامهم واضطرت قريش وغطفان والاحابيش وقبائل العرب للانسحاب من المدينة بعد ان طال الحصار دون جدوى . وبقيت قريظة في داخل المدينة لتواجه مصير خيانتها ونقضها العهود ، فاستسلموا وطلبوا ان يحكم فيهم حليفهم السابق سعد بن معاذ زعيم الاوس وسيدها وكان سعد رضي الله عنه قد اصيب بسهم قاتل فدعى الله ان يبقيه حتى يرى يوما في قريظة فأبقاه الله وجعل قريظة تطلب تحكيمه فحكم بحكم الله من فوق سبع سنوات (كما قال الرسول): تقتل المقاتلة وتسبى الذراري والنساء . ولا شك أن ذلك كان سيكون مصير المسلمين إذا انتصر الاحزاب وقريظة في تلك المعركة الفاصلة .

وبذلك انتهت شوكة اليهود في المدينة ولم يبق لهم الا خيبر التي فتحها المسلمون في السنة التالية بعد صلح الحديبية وبذلك انتهت مؤامرات اليهود الكبرى على المسلمين في تلك العهود الزاهرة . وان كان غلهم وحقدهم على المسلمين باق حتى ظهر في زماننا هذا .

معاناة الرسول ﷺ مع المنافقين واليهود

_لقد عانى رسول الله ﷺ من المنافقين منذ أن وطئت قدماه المدينة .. ونجد في القرآن الكريم وصفا لمعاناة الرسول ﷺ مع المنافقين واليهود ، فإذا فتحنا المصحف الكريم وجدنا بعد الفاتحة سورة البقرة ومن أولها نجد صفات المؤمنين في أربع آيات وصفات الكافرين في آيتين فقط ، أما المنافقين فقد أفرد الله لهم 13 آية ومنها قوله تعالى : **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ (** من كبار اليهود والمنافقين **) قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}**[البقرة : 8-14] .

وكان تآمر المنافقين واليهود على الرسول ﷺ واضحا جليا منذ أن استقرَّ في المدينة ، فكانوا يستهزئون بالرسول ﷺ وبالمؤمنين . وإذا مرّ رسول الله ﷺ بمجلس فيه عبد الله بن أبي رئيس النفاق ، يقول له لقد عفّرت مجلسنا ، فأذهب عنا ولا تؤذنا بقتار حمارك ..

وكان له دور وأي دور في معركة أحد حيث رجع بثلث الجيش الاسلامي بعد أن خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاقاة العدو بعد الحاح شباب الانصار على ذلك فرجع عبد الله بن ابي بثلاثمائة ممن كانوا ينصاعون له . فلما وقعت المعركة والهزيمة بسبب مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ قالوا : (**{لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا}**[آل عمران : 156]) فثبّت الله المؤمنين رغم الهزيمة والجراح والقتل قال تعالى : **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}** [آل عمران : 169-171] . وهكذا تحولت الهزيمة والجراح والقتل في سبيل الله الى فرح غامر بهذه الدرجة السامقة عند الله – درجة الشهداء الاحياء عند الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر وهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من أخوانهم المجاهدين ليشاركوهم هذا النعيم المقيم الذي لا يزول أبدا ورضوان من الله أكبر .

وفي سورة النساء تهديد ووعيد للذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر **{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا }**[النساء : 38-40] .

وفي سورة النساء أيضا تنديد بالمنافقين الذين يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ويتركوا حكم الله وحكم رسوله ، وهم يزعمون أنهم مؤمنون قال تعالى : {**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**} [النساء : 60-63].

وتستمر الآيات المتتاليات في سورة النساء تندد بالمنافقين والكافرين جميعا ويفضحهم تعالى على رؤوس الاشهاد قال تعالى : {**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ**} [النساء : 88-89] .

وفيها ايضا قوله تعالى : {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** } [النساء : 137-145] .

وفي معظم سور القرآن فضح للمنافقين واليهود ومؤامراتهم ودسائسهم ، وتعتبر سورة التوبة الفاضحة للمنافقين . رغم أنها نزلت بعد فتح مكة والطائف . وفي غزوة تبوك ، وذلك كله في السنة التاسعة من الهجرة وقبل وفاة النبي ﷺ بعام أو أقل من ذلك . وقد نزلت عندما أخذ المنافقون يعتذرون لرسول الله والمؤمنين حتى لا يذهبوا الى تبوك في شدة الحر قال تعالى : {**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**} [التوبة : 42] وفضحهم الله تعالى بقوله : {**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ**

لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة : 44-48] .

وتستمر سورة التوبة في فضح مؤامراتهم وحتى أولئك الذين خرجوا مع رسول الله كانوا يستهزؤون به ويتمنون أن ينتصر الرومان على المسلمين قال تعالى : **{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ }** [التوبة : 61-66]

وتستمر سورة التوبة في فضحهم وفضح مؤامراتهم حتى وهم معه في موقعة تبوك قال تعالى : **{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا }** [التوبة : 74] .

وقد انتهزوا فرصة انفراد النبي ﷺ عن أصحابه وصعوده عقبة في الطريق فكمنوا له لينخسوا دابته (ناقته) فيقع من على الناقة ، ويهوي الى الارض من فوق الجبل ، ولكن الله فضحهم وأحسَّ بذلك نفر من المسلمين فاسرعوا الى النبي ﷺ ، فلما أحسَّ المنافقون بهم شردوا ... وكم حاولوا من قبل هم وأولياؤهم من اليهود اغتياله، فأكبهم الله واخزاهم ونجّى رسوله منهم ومن كيدهم .

وكم من مرة وعدوا الله ثم أخلفوا الله ما وعدوه قال تعالى : **{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }** [التوبة : 75-77] .

وهم الذين يسخرون من صدقات المؤمنين فإن أتى أحدهم بمال كثير قالوا هذا يتظاهر بذلك وان أتى أحدهم بما عنده من مال قليل قالوا : إن الله غني عن مال هذا .

وقد **{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}** [التوبة :81] ،

ولشدة نفاقهم وكفرهم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الرؤوف الرحيم بأن لا يستغفر لهم قال تعالى : **{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}** [التوبة : 80] .

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال : لو أعلم ان الله سيغفر لهم لو زدت على السبعين لزدت ... وسيد الفصحاء يعلم أن عدد السبعين عند العرب يدل على الكثرة ، وانه لو زاد على السبعين لما نفعهم ذلك .

وفضح الله المنافقين واتفاقهم مع ابي عامر الفاسق الذي فرّ الى الروم بعد أن أهلك الحرث والنسل في المدينة فأمر اتباعه بأن يبنوا مسجدا في شمال المدينة وأن يأتوا رسول الله ليصلي فيه ، وبذلك يخدعون الرسول ﷺ والمؤمنين ، ويتلقون رسائل ابي عامر الفاسق من الشام يوجههم بما يعملون ويستلم منهم أخبارهم ومؤامراتهم فأطلع الله رسوله على ذلك ، وانزل سبحانه وتعالى قوله : **{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }** [التوبة : 107-110] .

وهكذا فضح الله المنافقين ومسجد الضرار الذي بنوه ليتآمروا على الاسلام والمسلمين مع رئيسهم أبي عامر الفاسق الذي هرب الى الروم في الشام واستمر في مؤامرته ، ومدح أهل قباو الذين بنوا مسجدهم من أول يوم على التقوى والاخلاص والطهارة الظاهرة والباطنة . وشتان ما بين الفريقين ، رغم أنهم من أرومة واحدة وقبيلة واحدة ومدينة واحدة .

حديث الافك

والقرآن الكريم مليء بفصح المنافقين ومؤامراتهم . وقد كان من أشدّ تلك المؤامرات وقعا على رسول الله حديث الافك على عائشة رضي الله عنها ، وذلك في غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة من الهجرة .

قالت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أقرع بين نسائه ، كما كان يفعل في كثير من غزواته ، فخرج سهم عائشة ، وكان الحجاب قد نزل ، وكانت تحمل في الهودج وتنزل فيه ، وهي خفيفة الوزن يومئذ ، فلما فرغ رسول الله من غزوته آذن بالرحيل ، وفقدت عائشة عقدها (وهو جزع ظفار أي نوع من الخرز مثل الكهرمان من منطقة ظفار وهي اليوم في عمان) فذهبت تبحث عن عقدها فجاء الرهط الذين كانوا يرحلون بها ، فاحتملوا هودجها ... وبما أنها خفيفة الوزن لم يدركوا أنها ليست فيه . فلما رجعت وجدت أن القوم قد سبقوها فظلت مكانها وقالت سيشعرون بغيبتي وسيرسلون لي من يأخذني ، فتلفعت في ثوبها ونامت ولكنها استيقظت على صوت صفوان بن المعطل يقول : إنا لله وإنا اليه راجعون . ظعينة رسول الله . وكان صفوان على ساقة الجيش ليلتقط ما سقط منهم من متاع فيرده . وأركبها ناقته وسار بها حتى أدرك الجيش . فقال عبد الله بن ابي رأس النفاق لا نجوت إن نجا فأشاع البهتان والافك على عائشة رضي الله عنها . وهي لا تدري بما يقول الناس ومرضت شهرا . وانكرت في نفسها بعض لطف رسول الله ﷺ بها ، وخاصة إذا مرضت . وخرجت ذات ليلة لتقضي حاجتها مع ام مسطح (ولم يكن هناك كنُف أي حمامات في البيوت وكانت النساء يخرجن في الليل ليقضين حاجتن) فعثرت أم مسطح فقالت : تعس مسطح فقالت عائشة : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت أوما بلغك ما قال يا بنت أبي بكر ، فاخبرتها أم

مسطح بما يقول الناس من اتهامها بصفوان بن المعطّل . وكان ممن تكلم في ذلك مسطح .. وتولى كبر هذا الكلام رأس النفاق عبد الله بن أبي ومعه المنافقون ينشرون هذا الافك .

والرسول ﷺ منتظر الوحي . وابو بكر الصديق لا يستطيع أن يدافع عن ابنته احتراما لحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. واستمر الامر شهرا كاملا ، واعلن معظم الصحابة براءة عائشة بما فيهم ضرّة عائشة زينب بنت جحش التي قالت لرسول الله ﷺ حين سألها : يا رسول الله احمي سمعي وبصري ، والله ما علمت الا خيرا ... ووقع في حديث الافك من غير المنافقين مسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، فلما نزل القرآن الكريم بتبرئتها حدّهم رسول الله ﷺ ولم يحدّ أحداً من المنافقين حيث أن ذنبهم أعظم من ذلك بكثير . فهم الذين روجوا حديث الافك .

قال تعالى : {**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** } [النور : 11-20]

وقال تعالى : {**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23)يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } [النور : 23-26] .

آلام الرسول ﷺ في أسرته ونفسه

ذكرنا طرفا مما فعلته قريش بمحمد ﷺ وصحبه من الأذى البالغ وخاصة مع الضعفاء منهم مثل آل ياسر الذين قدموا أعظم تضحية فكانت سمية زوجة ياسر وأم عمار أول من استشهد في الاسلام ولحقها زوجها مباشرة .. وذلك بتعذيب أبي جهل لهما .

وكانت خديجة رضي الله عنها وأرضاها أول من أسلم من الناس ، وهي التي ثبتت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند بدء الوحي ، وخشى على نفسه بعد أن فاجأه الوحي في غار حراء وغطّه الملك غطّا شديدا وهو يقول له اقرأ، فقال : ما أنا بقاريء مرتين وفي الثالثة قال له : {**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** } [العلق : 1-4] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمّلوني زمّلوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع ، وأخبر خديجة الخبر وقال : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فكانت بذلك أول من آمن به وثبتّته .. وطوال الفترة المكية كانت هي البسمة الحانية والعقل الراجح ، والثبات الذي لا نظير له ... ووقفت معه حين كذّبه الناس ، وأعطته حبّها ودعمها وكل ما معها حين حرمه الناس ورزقه الله منها الولد وحُرم من غيرها (ما عدا ابراهيم)

وقالت له : ابشر يا ابن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو ان تكون نبي هذه الامة .. ثم انطلقت به الى ورقه بن نوفل الذي قال له : ان هذا هو الناموس الاكبر الذي أنزل على موسى وانك نبي هذه الامة وليتني أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال المصطفى ﷺ : اومخرجي هم؟ ، قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت الا أوذي ، وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقه أن توفي وفتر الوحي . فكان ورقه بذلك ثاني شخص يؤمن برسالة محمد ﷺ ويثبتّه على ذلك بعد خديجة الا أن الموت عاجله .

وكانت خديجة رضي الله عنها هي أم أولاده جميعا ما عدا ابراهيم الذي ولد في المدينة من مارية القبطية ، في أواخر عهد النبي ﷺ . وقد ولدت له القاسم أولا (وهو يكنّى به) ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله . ومات بنوه القاسم ثم عبد الله وهم صغار حتى قالت قريش لا عقب ولا نسل لمحمد فانزل الله تعالى قوله : {**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** }[سورة الكوثر].

ولما ازداد الأذى بمحمد وآله وصحبه أذن لهم في الهجرة الى الحبشة .. وقامت قريش بكتابة صحيفة الظلم بمقاطعة بني هاشم . ومحاصرتهم ومنع الطعام والشراب عنهم ... واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات حتى أكلت الأرضة تلك الوثيقة الظالمة المعلّقة بالكعبة المشرفة . وقد عانت خديجة وابو طالب معاناة شديدة من هذا الحصار ... وماتا بعد رفعه مباشرة فكان ذلك عام الحزن بالنسبة لرسول الله ﷺ .

وكان مما يؤلم رسول الله ﷺ أشدّ الألم أن تأتي ابنته فاطمة فترفع عن كاهله الفرث الذي وضعه عقبة بن أبي معيط وهو ساجد ....

وفي حياته في المدينة فقد بناته زينب ورقية وأم كلثوم وبقيت فاطمة التي لحقت به بعد وفاته بستة أشهر أو دونها ... وفي المدينة مات ابنه ابراهيم الذي جاءه في كبر سنه وفرح به . ولكن ابراهيم أيضا مات قبل الفطام (أي قبل عامين) فحزن عليه أشدّ الحزن ودمعت عيناه وقال : انا على فراقك يا ابراهيم لممحزونون ولكنا لا نقول الا ما يرضي الرب .. ومات بعض أحفاده ونفسه تقعقع بين يديه ، وكانت عيناه ﷺ تذرفان رحمة ورأفة بهذا الصبي ..

كما جاءه جبريل وهو يقبّل الحسين فقال له : أتحبّه ؟ فقال ﷺ : وكيف لا أحبه وهو والحسن ريحانتاي من الدنيا . فقال : ان قومك سيغدرون به ويقتلونه . قال : وهم على الاسلام !! قال : نعم (أي على ظاهر الاسلام) . ثم أتاه بتربة كربلاء التي سيستشهد فيها . واعطاها الرسول ﷺ زوجه أم سلمة فوضعتها في قارورة فلما استشهد الحسين تحولت الى لون الدم ، فعرفت أم سلمة باستشهاد الحسين عليه السلام .

حديث الأفك :

ومن أشد ما عاناه رسول الله ﷺ حديث الافك والبهتان على زوجته السيدة عائشة الطاهرة المطهرة . وقد تكلم المنافقون وأرجفوا حتى وقع في ذلك ثلاثة من الصحابة وهم مسطح بن أثاثه ، وكان قريبا لابي بكر رضي الله عنه ، وأبو بكر يحسن اليه ، فلما تكلم بذلك منع عنه رفده فنزل قوله تعالى :{ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** }[النور : 22] . فقال أبو بكر رضي الله عنه : " بلى بلى اني أحب أن يغفر الله لي " وأعاد لمسطح ما كان يرفده به . ومن هؤلاء الذين تكلموا حسّان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، فطهرهم رسول الله ﷺ بأن أقام عليهم حدّ القذف ، وتاب الله عليهم .

وقد بقي رسول الله ﷺ شهرا كاملا دون أن يأتيه وحي ، مع معرفته بطهارة عائشة رضي الله عنها ، فلما جاء الوحي سكنت نفسه وذهب عنه ما كان يجد من ألم ومرارة .

زواج زينب بنت جحش وابطال التبني

ومن معاناته ﷺ أنه أمر بنت عمته زينب بنت جحش الاسدية القرشية بالزواج من مولاه الذي اعتقه وتبنّاه في مكة زيد بن حارثة الكلبي.. وكانت في العرب عامة ، وفي قريش خاصة أنفة شديدة فكيف يزوجون من كان عبدا ، فأبت زينب وأخوها ذلك الزواج أول الأمر فنزل قوله تعالى :{ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا**} [الاحزاب : 36] فما كان منهم الا أن أطاعوا وتزوج زيد مولى رسول الله ﷺ زينب بنت جحش القرشية وابنة عمة رسول الله ﷺ ؟. ولكن الحياة بين الزوجين تعسرّت ، وكانت نفس زينب لا تطيب بهذه العشرة فأراد زيد أن يطلقها ، والرسول ﷺ يمنعه من ذلك حتى نزل قوله تعالى : {**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** }[الاحزاب : 37 - 40] .

وهكذا أبطل الله سبحانه وتعالى التعالي والتفاخر بالانساب في تزويج زيد المولى بالقرشية زينب بنت جحش بنت عمة رسول الله ﷺ . كما أبطل الله سبحانه وتعالى التبنّي الى الابد ، وأمر رسول الله ﷺ بأن يتزوج بطليقة مولاه زيد الذي كان قد تبناه في مكة . وكانت تلك التجربة من أعسر التجارب عليه ... وقد بلغ الامر برسول الله ﷺ أن

يخشى كلام الناس ، وهو الذي لا يخشى أحدا الا الله .. وهو الذي كان يقارع الابطال ويلوذ به الشجعان من صحابته إذا اشتدّ القتال واحمرت الحدق ... ولكن للناس ألسنة حداد .. وقد جعلته ﷺ يخشاها حتى نزل أمر الله وزوّجه الله من فوق سبع سموات بزينب رضي الله عنها ليبطل عادة العرب والأمم في التبنّي ، ويكافئ زينب وأخاها على طاعتهم لرسول الله ورضاهم بزيد زوجا لها .

ومع ذلك استمر المنافقون والذين في قلوبهم مرض يستنكرون ان يتزوج محمد ﷺ طليقة متبّناه ومولاه زيد بن حارثة .. والى يومنا هذا نجد المستشرقين ومن والاهم يذكرون هذه الحادثة بالانكار على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويروون في ذلك حكايات مكذوبة في محبته المفاجئة لزينب ، حتى أنه تزوجها بعد طلاقها من زيد.. وهكذا أبطل الله سبحانه وتعالى التبني وعواقبه بتزويج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش ، وهو أمر كان ثقيلا على نفس محمد صلى الله عليه وأله وسلم ، وهو الذي لا يخشى أحداً الا الله ، ولكنه ألسنة الناس وخاصة المنافقين والكافرين حداد ، حتى قال الله تعالى له : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، مع أنه ﷺ لم يخشَ مقارعة الابطال والصناديد ، ولم يخشَ قريشا وغيرها من قبائل العرب في سبِّ آلهتهم وأوثانهم التي يعبدونها من دون الله . ولم يرضَ بمهادنتهم قطّ ولو جعلوا الشمس في يمينه والقمر في يساره .

وهذا يوضح الى اي مدى يخشى الانسان الكريم على الله وعلى الناس ، من كلام هؤلاؤ السفهاء وخاصة في أمور الاسرة والعائلة .

أمثلة من ابتلاء الصحابة والتابعين

لقد ذكرنا فيما سبق ابتلاءات ضعفاء الصحابة من الموالي ومن لا سند لهم في مكة في بداية الدعوة ، وذكرنا قصة عمار بن ياسر بن عامر من بني عبس وأن امه سميّة رضي الله عنها وارضاها ، كانت أول من استشهد من المسلمين ، طعنها عدو الله وعدو رسوله ابو جهل عمرو بن هشام المخزومي ، في قُبُلها بعد تعذيبها العذاب الشديد برمحه ، ثم قتل زوجها ياسر فكان ثاني من استشهد ، وجاء الدور على عمار رضي الله عنه ، فلم يتحمّل شدة العذاب ، وقال كلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئنين بالايمان ، فجاء الى رسول الله ﷺ ، يبكي لما قال ، فقال له الرسول الكريم : " كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالايمان " ، وانزل الله فيه **{إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}** [النحل : 106] ، وقال عنه رسول الله ﷺ : " إن عمارا مليء ايمانا الى مشاشة " (اخرجه الترمذي) وقال عمار : رايت رسول الله ﷺ وما معه الا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر " (اخرجه البخاري) واخرج ابن ماجه إن اول من اظهر اسلامه سبعة ذكر منهم عمار .

وقال رسول الله ﷺ :" من عادى عمار عاداه الله ، ومن أبغض عمار أبغضه الله " أخرجه الترمذي وابن ماجه (وسنده حسن) ... وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما : " عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار " فقتله جند معاوية في صفين وسنة ثلاث وتسعون سنة .

وكان دور النساء في الاسلام عظيما فأول من أسلم على الاطلاق خديجة ، وأول من استشهد في الاسلام سميّة أم عمار بن ياسر ، وفي المجموعات الأولى التي دخلت الاسلام عدد من النساء وخاصة من الاماء والموالي .

وقاتلت بعض النساء بالسيف مع رسول الله ﷺ ، ومنهن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، فقاتلت في أحد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " ما التفت يمينا ولا يسارا الا وجدت أم عمارة وهي تقاتل عني بسيفها يوم أحد ... ولم تتوقف رضي الله عنها عن القتال الا بعد أن اثخنتها الجراح وبُقرت (قطعت) بطنها.

وأما النساء اللاتي داوين الجرحى فكان عددهن كبيرا منهن عائشة رضي الله عنها .

وكن في الجيش يداوين الجرحى ويسقين العطشى ويثبتن المقاتلين .. ونرى في موقعة بدر موقفا رائعا من تلك المواقف البطولية التي لا تعبأ بالألم ولا الجراح . وهو موقف معاذ بن عمرو بن الجموح الانصاري رضي الله عنه .

وقرر معاذ ان يصل الى ابي جهل (عمرو بن هشام المخزومي) وهو محاط بكوكبة من بني مخزوم ، فاخترق الصفوف وسيوف بني مخزوم مشرعة ، فضرب أبا جهل ضربة بترت ساقه ، فأسرع عكرمة بن أبي جهل فضرب معاذا على عاتقه ، فتدلت يده من عاتقه . قال معاذ : فلما آذتني وضعت عليها قدمي ، ثم تطميّت عليها حتى طرحتها". .. ثم واصل القتال غير عابئ بما اصابه .

وفي يوم أحد ظهرت بطولات خارقة . ولقد قاتل بعض أصحاب رسول الله ﷺ بعد الهزيمة قتالا شرسا ، وترّس على رسول الله ﷺ ، أبو دجانه يقيه النبل بنفسه ، ورمى سعد بن أبي وقاص بالنبل حتى قال له النبي ﷺ : " ارم فداك ابي وأمي " . وقاتل علي وأبو بكر وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة ، وثلة من الانصار من بينهم أم عمارة قتالا شديدا ، واستشهد من استشهد وجرح من جرح .

ولكن الطامة حدثت عندما صاح صائح أن محمدا قد قتل ، ففتَّ ذلك في عضد المقاتلين من المسلمين ولحقتهم الهزيمة .. ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر رضي الله عنه ، وقد انتهى الى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والانصار فقد ألقوا بأيديهم فقال : ما يجلسكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ . فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم استقبل المشركين ... ولقى سعد بن معاذ فقال له : يا سعد واها لريح الجنة ، اني أجدها من دون أحد ، فقاتل حتى قتل . ووجد به بضع وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح ، ولم تعرفه الا أخته ، عرفته ببنانه .

وكان عمرو بن الجموح السلمي الانصاري أعرج شديد العرج ، وكان له اربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، فلما توجه رسول الله ﷺ الى أحد أراد عمرو بن الجموح أن يتوجه معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ان بني يمنعونني أن اخرج معك . والله اني لارجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة !! فقال له رسول الله ﷺ : " أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد" وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه؟ لعل الله عزّ وجلّ يرزقه الشهادة ؟ " فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا .

وقال خيثمة رضي الله عنه ، وكان ابنه قد استشهد في معركة بدر : لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت والله عليها حريصا ، حتى ساهمت (أي جعل السهام والقرعة) ابني في الخروج فخرج سهمه ، فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ، يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا . وقد والله يا رسول الله اصبحت مشتاقا الى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سنيّ ، ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي " . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل يوم أحد شهيدا .

وسمع الشاب حنظلة ، وهو في ليلة زفافه نداء الحرب ، فخرج مسرعا ملبيّا نداء الجنة ، فقاتل حنظلة حتى نال الشهادة . وإذا النبي ﷺ يرى الملائكة تغسّل حنظلة ، فسألوا زوجته العروس فقالت : خرج مسرعا حين سمع النداء بالجهاد وهو جَنُب " فقال رسول الله ﷺ : " كذلك غسّلته الملائكة " .

والغريب حقا أن الشاب المؤمن حنظلة كان ابن المنافق الفاسق ابي عامر الراهب الذي بنى مسجد ضرار وآذى رسول الله ﷺ ... وكان يهلك الحرث والنسل والناس نيام حتى سمّاه الله فاسقا ، وقد بلغ من ايمان حنظلة أن عرض على رسول الله ﷺ أن يقتل أباه ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ . وكذلك فعل عبد الله ابن رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول الذي قال : (ليخرجن الأعز منّا الأذل) وأراد قتل ابيه ولكن رسول الله ﷺ منعه من ذلك ، ومع ذلك فقد قام عبد الله بن عبد الله بن ابي سلول بمنع أبيه من دخول المدينة ليعلم ان العزّة لله ورسوله ، حتى أذن له رسول الله ﷺ بالدخول .

وكم ظهرت من بطولات خارقة وصغار الصحابة يتبارون أمام رسول الله ﷺ ليسمح لهم بالجهاد . وكان رسول الله ﷺ لا يسمح لأحد منهم بالخروج حتى يبلغ الخامسة عشرة ... وحاول عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وابو سعيد الخدري ، ورافع بن خديج ، وسمرة بن جندب ، الخروج معه ، فردهم رسول الله ﷺ ما عدا رافع بن خديج لمهارته في رمي النبال منذ نعومة أظفاره .

فخنق لذلك سمرة بن جندب لانه كان يصرع رافع بن خديج حين يتباريان فأمرهما الرسول ﷺ بالمصارعة . فانتصر سمرة بن جندب ، فسمح له رسول الله ﷺ بالالتحاق بالجيش . وسعد بذلك الاذن سَمُرَة بن جندب وأمه سعادة كبرى فقد أصبح ابنها في مصاف الرجال ، ويدخل المعركة مع الصناديد والابطال .

وكم ظهرت من البطولات في التاريخ الاسلامي ، فقد ملأت الخنساء الشاعرة الدنيا صراخا ورثاء على أخيها صخرا عند موته في الجاهلية ، فلما شرّفها الله بالاسلام ، وفقدت ابناءها الأربعة في معركة القادسية (في العراق) قالت الحمد لله الذي شرّفني باستشهادهم .

ولا تكفي المجلدات في وصف البطولات والخوارق والصبر على الالام والجراح في كل معارك الاسلام الفاصلة .

وبعد قرنين من الزمان وتقريبا (194هـ) يقف شقيق البلخي (من شمال أفغانستان وتسمى بلخ اليوم مزار شريف) وهو في معركة كولان (في التركستان الشرقية التي تحتلها الصين وتسمى اليوم سينكيانج) ، ويقول لتلميذه حاتم الأصم : هل تجد نفسك في مثل اليوم زُفّت اليك زوجتك ؟ " فيقول حاتم : لا والله ، ويرد شقيق : والله اني أجد نفسي في مثل اليوم الذي زفت اليّ فيه زوجتي وأكثر . وانطلق يقاتل حتى استشهد .

وعلي بن أبي طالب ينام في فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة قرير العين ، وسيوف قريش كلها مشرعة نحوه ليقتلوه ، وهم يظنون أنه رسول الله ﷺ .

وعندما ضربه عبد الرحمن بن ملجم ، أشقى هذه الأمة ، وهو يصليّ بالناس الفجر ، لم يشعر بالضربة وهو في سجوده حتى ثعب الدم من الجرح ، وبلغ الصف الاول الذي فُجع بالدم من أمير المؤمنين .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ايضا ساجدا عندما ضربه المجوسي أبو لؤلؤة ، بسيف مسموم وهو ساجد في صلاة الفجر ، وكان أول سؤال يسأله : هل أتمَّ الناس الصلاة ؟ ثم سأل عمّن ضربه بالسيف ؟ فحمد الله تعالى أن دمه لم يعلق بامرءٍ مسلم .

وكان شباب الصحابة يشاركون في القتال ، بل ويوليهم رسول الله ﷺ القيادة ، إذا رأى كفاآتهم لذلك . فقد ولى أسامة بن زيد وعمره سبعة عشر عاما قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر تحت امرته ، لمقاتلة الروم ، فتكلم بعض الناس في ذلك فقال لهم رسول الله ﷺ : إنه خليق بالامرة ، كما كان أبوه خليقا بها .

واشترك شباب الصحابة في فتوح البلدان وكان منهم عبد الله بن عمر والحسن والحسين سبطا النبي ﷺ وقرتا عينه في مقدمة الصفوف في أذربيجان وكرجستان والداغستان (جمهورية أذربيجان ، وجمهورية جورجيا والداغستان ولا تزال في روسيا) ، وكان ضمن هؤلاء الشباب أيضا عبد الله بن العباس ، وقثم بن العباس (الذي كان أحد الثلاثة الذين يشبهون رسول الله ﷺ وهم : جعفر بن أبي طالب والحسن بن علي وقثم بن العباس) . واستشهد قثم بن العباس في فتح سمرقند (في جمهورية أوزبكستان وقبره معروف باسم قبر الشهيد الحي).

وقصص البطولات الخارقة والصبر على الجراح والالام لم يتوقف .... وكم هي صور البطولات في الحروب التي شنتها أوربا الاستعمارية على بلاد المسلمين ففي الجزائر لمعت أسماء كثيرة في ثورة عبد القادر الجزائري مع اخلاق النبل والكرم في معاملة الاعداء حين يؤسرون . وتقابلها صورة قميئة لجنود فرنسا حين ينتصرون . وكذلك كانت ثورة الريف في المغرب بقيادة عبد الكريم الخطابي ، وثورة السنوسي في ليبيا والتي قادها بعد ذلك البطل الشهيد عمر المختار الذي اعدمته ايطاليا بعد معارك ضارية ، ونساء ليبيا يزغردن ساعة اعدامه ، لعلمهم انه سينتقل الى رحمة الله وجنانه .

وفي القوقاز قامت ثورات عديدة أهمها ثورة الشيخ محمد شامل الكمراوي من عام 1830 حتى عام 1859 حتى اعترفت له روسيا القيصرية بنبل أخلاقه وحُسن معاملته للأسرى من الروس ، عكس ما كان يفعله جنرالات الروس المتجبرين (أمثال يرملوف) من احراق المدن والقرى بسكانها .

ثم بعد ذلك ثورة نجم الدين غوتسو التي استمرت منذ عام 1917 حتى عام 1925 في بداية الحكم الشيوعي البربري ، واستطاع أهل القوقاز مرة أخرى أن يسجلوا بطولات رائعة وأخلاق سامية مع اعدائهم . وكان مع المجاهدين الشيخ أوزون جحى الذي جاوز التسعين من عمره المديد واستشهد وهو يقاتل على صهوة جواده .

وفي التركستان ظهرت ثورة البشمرجة (1918 – 1928) التي كان يقودها علماء الاسلام وشيوخ الطرق الصوفية . مثل إسلام قرباشي ، والملا دهقان .

وكل هذه الحركات الجهادية كان يقودها علماء الاسلام وشيوخ الطرق الصوفية وكانوا يمثلون البطولات الاسلامية في الصبر على الجهاد مع قلة الزاد ووعورة الطرق وتكالب الاعداء ... وكانت رغم ذلك على أعلى مستوى من الاخلاق في معاملة الاسرى من الاعداء ..

وكان الروس ومن بينهم الشاعر بوشكين والشاعر ليرمنتوف يتعجبون من شجاعة المسلمين أهل القوقاس وهم يقاتلون الجيش الامبراطوري المدجج بالسلاح ويذكرون كيف ان المقاتلين المسلمين لا يتوقفون عن القتال رغم الجراح العديدة التي تصيبهم .

وفي المجال السلمي كانت هناك أيضا بطولات خارقة فعروة بن الزبير (أحد كبار التابعين وابن الزبيربن العوام وأخ عبد الله بن الزبير وابن أسماء بنت ابي بكر) أصيب في احدى قدميه وساقيه بالغرغرينا فقال له الاطباء : لا بد من بترها .. وحتى لا تشعر بالالم الشديد لا بد من اعطائك المرقّد وهو ما يعرف بالبنج . والبنج نبات يسمى بالعربية الشيكران (السكران) يُصدع ويخلط العقل ، كما جاء في تذكرة داود الانطاكي . ونبات السكران يطلق عليه اسماء محليّة مختلفة منها البنج الابيض والبنج المصري وسم الفراخ وفي ليبيا يطلق عليه اسم القنقيط وفي حضرموت يطلق عليه اسم جليجلة ، وهكذا .

واسمه العلمي Hyocyamous ويتبع الفصيلة الباذنجانية Fam. Solanacae ويستخرج منه القلويدات Alkaloids الهايو سايمين Hyocyamine وهو يستخدم لمداواة المغص (واسمه التجاري بسكوبان) والثاني سكو بالامين (Scopalamine) ويستخدم كمادة قبل التخدير الكامل لأنه يسبب ما يعرف بنوم الشفق وشيء من فقدان الوعي .

وهناك نباتات مشابهة مثل الداتورة (Datura) وبلادونا (Belladona) ولها أسماء محلية مختلفة . وكلها تستخرج منها أدوية تستخدم في الطب .

وكان العرب القدماء أيضا يطلقون اسم البنج على الحشيش . ولفظ البنج bhang لفظة هندية وتدعى بانجا Bhanga ويطلق على القنب الهندي (الحشيش) وقد تكلم الفقهاء عن البنج منذ فترة مبكرة وأباحوا استخدامه للتداوي وخاصة قبل اجراء العمليات الجراحية .

وكان الاطباء والجراحون بصورة خاصة يستخدمون مزيجا من نبات السكران أو الداتوره مع شيء من القنب الهندي والافيون وذلك قبل العمليات الجراحية . وعرض الاطباء على عروة بن الزبير أن يعطوه البنج (المرقد) وهو هذا المزيج ، ولكن عروة بن الزبير رفض أن يأخذ ما يذهب عقله ، ولو لفترة محدودة وقال للاطباء : إذا دخلت في الصلاة وسجدت فاقطعوا ساقي !! ، وبالفعل تم قطع قدمه وساقه وهو ساجد يصلي .

فأي قوة هذه ، واي سكينة هذه !! وأي خشوع هذا !! وهكذا تنهمر عليه في صلاته الخاشعة ما نعلم ومالانعلم من المواد المورفينية الدماغية التي كشف بعض سرها العلم الحديث في الربع الاخير من القرن العشرين . وما تبعها من اكتشاف ما يسمى هرمون السعادة مثل الدوبامين والسيروتينين ...

وهكذا نجد تفسير علميا ، ولوناقصا لما كان يحدث من قصص خارقة حيث يقوم أحدهم (معاذ بن عمرو بن الجموح في معركة بدر) بقطع يده من منكبها بعد أن ضربه عكرمة بن ابي جهل على عاتقه وهو يهاجم أباه ، وذلك كله ليواصل القتال .. ومثله العديد من قصص الابطال الى العصور القريبة الماضية حين نرى أبطال القوقاس يواصلون القتال واجسادهم مخرّقة برصاص الاعداء ، وقصة عروة بن الزبير مثال على هذا الصبر وعلى نعمة الرب الكريم الذي يسكب على قلوبهم السكينة والرضا وتحمّل الالام ، وهم في أعظم لحظات الخشوع عند سجودهم لمولاهم وربهم الذي يحبّهم ويحبونه .

الاحساس بالألم وقصص معاصرة

لا شك أن الاحساس بالألم يختلف من شخص الى آخر ، وفي نفس الشخص من مكان لآخر .. وبما أن الاحساس بالألم هو في المناطق المخيّة (وهي في قشرة الدماغ) وهي مرتبطة بما تحتها من مناطق مخية وخاصة في الجهاز الجوفي (Limbic System) وما فيه من افرازات لمواد معقدة ، ومنها مجموعة كبيرة من المواد البروتينية التي تدعى بيبتايدز Peptides والتي لها علاقة بتخفيض الاحساس بالألم مثل المورفينات الدماغية أو المواد التي تسبب الاحساس بالسعادة مثل الدوبامين والسيروتينين ، وما يضادها من مواد تزيد الاحساس بالألم والقلق مثل الايبينفربن ونور ايبينفرين والكورتيزول ومشتقاته ومادة P..لهذا كله فإن الاحساس بالألم مع ما يصحبه من قلق وشعور بالتعاسة أمر شديد التعقيد ويختلف بدون شك من شخص الى أخر ، ومن موقف لآخر لنفس هذا الشخص. فعلى سبيل المثال إذا كان الشخص منهمكا في مباراة حامية . وهو متحمس لها ، فقد لا يشعر بالألم ، ويواصل المباراة ، فإذا انتهت المباراة ، بدأ يصرخ من الألم .

وقد قصّ الله علينا قصة يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز ، صاحبة المال والجمال ، فأبى عليها ، فتكلم نسوة في المدينة وقالوا :{ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** } [يوسف : 30-31]. فإذا بلغ الامر بالصفوة من نساء مصر المرهفات المتدللات أن يقطعّن أيديهن ، ولا يشعرون بالألم ، عندما رأوا جمال يوسف عليه السلام ، فكيف بمن امتلأ قلبه إيمانا وحبا لله حتى صدق فيه ما ذكره الرسول ﷺ ، من صفات الاحسان ، أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فهؤلاء القوم الذين هم مع الله يحبهم ويحبونه ، {**تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** }[فصلت : 30]. وحتى يقول قائلهم كما يذكره ابن القيم في مدارج السالكين " : إذا كان أهل الجنة على ما نحن عليه ، انهم إذن لفي عيش طيب " . ويقول الآخر " لو علم الملوك على ما نحن عليه اليوم لقاتلونا عليه بالسيوف " . وحتى يقول ابن تيمية رحمه الله بعد أن أوذي وادخل السجن : ما يصنع أعداءي بي ، أنا حبسي خلوة واخراجي من بلدي سياحة ، وقتلي شهادة " وهكذا هم أولياء الله وأحبابه في كل مكان وزمان . ويقول الامام علي كرم الله وجهه وهو يبكي من خشية الله ويخاطب الدنيا : لقد طلقتك ثلاثا ، ومع ذلك يتململ في الصلاة تململ السليم (أي الذي لدغته الأفعى) قابضا على لحيته وقد أرخى الليل سدوله قائلا : آه آه من قلة الزاد ووعورة الطريق" .

وقد وصفنا فيما سبق بعض مواقف الصحابة والمجاهدين وهم يواصلون جهادهم رغم الجراحات الشديدة حتى أن احدهم ليتمطّى وينزع كتفه التي تعوقه عن القتال بعد ان ضربها عكرمة بن ابي جهل ، وهو يدافع عن ابيه ، يوم بدر . ويواصل معاذ بن عمرو بن الجموح القتال دون كلل حتى انتهاء المعركة . وتقاتل أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية عن رسول الله يوم أحد حتى طعنت في بطنها وظهرت أمعاءها فربطت على بطنها تريد مواصلة القتال رضى الله عنها وارضاها .

وقد رأيت بنفسي عام 1968 عندما كنت أعمل طبيبا في مستشفى صغير في أرياف اليمن طفلين كانا يلعبان وبين ايديهما قنبلة نابالم (التي استعملها الجيش المصري أيام حرب اليمن في عهد عبد الناصر) فانفجرت فيهما وجيء بهما ، وكنت الطبيب الوحيد ، واستغربت منهما حيث كانا في منتهى الشجاعة والقوة رغم صغر سنهما (

عشر سنوات وثمان سنوات) وأنا أزيل الجلد المحروق دون أن يصرخ أحدهما أو يئن لأن العرف القبلى عندهم ان الرجل لا يبكي ولا يصرخ ، وانما تفعل ذلك النساء .

قمة الصبر والايمان من نساء مؤمنات طبيبات معاصرات :

الدكتورة سامية عبد الرحمن العمودي استشارية أمراض النساء والتوليد وعضوة هيئة التدريس بكلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .. وهي ايضا باحثة ومهتمة بالطب الاسلامي وأخلاقيات المهنة وكاتبة لها العديد من المؤلفات ومقالات اسبوعية في الصحافة المحلية في المملكة العربية السعودية .

في ابريل 2006 أصيبت بسرطان الثدي الذي اكتشفته صدفة وهي تتحسس صدرها فأحست بكتلة في الثدي .. وتقول الدكتورة سامية في كتابها " اكسري حاجز الصمت " الذي شرحت فيه قصتها كاملة : " في ثانية أدركت أن قضاء الله قد حلّ بي " في لحظة أدركت ما عندي ، لم أكن احتاج الى فحص أو أخذ عيّنة فأنا وللأسف طبيبة ، لذلك يكون الجهل في لحظات كهذه نعمة .. لحظة عصيبة أخذت أدور في أرجاء الغرفة أدعو الله بصوت عال أن يلهمني الثبات . أدعوه الثبات لأنني أعلم ان الاجر أنما يكون عند الصدمة الاولى " دعوته ، ناجيته دامعة : هل تحبني الى هذه الدرجة حتى ترسل لي رسالة حبّ كهذه .. تلك كانت اللحظة الأولى في هذه التجربة الانسانية التي أعيشها هذه الايام مع سرطان الثدي "

هذا موقف عظيم قد فقدناه من أزمنة متطاولة .. أن تكتشف استاذه في أمراض النساء والتوليد فجأه أنها مصابة بسرطان الثدي .. وفي تلك اللحظة تدرك أنها رسالة حبّ من الله سبحانه وتعالى لان رسول الله ﷺ يقول : " إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه " ويقول أن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل " . ولا شك ان أحبّ خلق الله الى الله سبحانه وتعالى هم الانبياء ، وأحبّهم اليه منهم محمدا ﷺ ، ثم أولي العزم من الرسل نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات ربي وسلامه عليهم اجمعين ... وقد استعرضنا فيما سبق بعض الابتلاءات التي ابتلي بها الانبياء .

ولكن ويالللعجب نجد طبيبة ناجحة واستاذة في كلية الطب تكتشف فجأة أنها مصابة بسرطان الثدي فلا تنهار ... ولا تفعل مثلما يفعل كثير من الناس من الغضب لماذا انا ياربي ؟ لماذا سلطت علي هذا الابتلاء ، وانا أعبدك وأخشاك ، وأحسن الى عبيدك وأداوي مرضاهم بقدر ما اعطيتني من علم .. وقد كنت دائما رفيقة بهم ، أحبُّ مرضاي ويحبونني !!

لا لم تغضب ولم تثر سامية العمودي التي ملئت إيمانا وتقوى وحبا لله ، بل اعتبرت ذلك منحة من الرب الكريم : ألهذا الحدّ تحبني يا الله ؟!!

وهذا موقف يعتبرغريبا وخاصة في هذا الزمان المادي ، وحيث يسعى الجميع الى ما يعتبرونه مجدا ومكانة ومالا ونجاحا .. وفي أحيان كثيرة لا يتورعون للوصول الى بعض ذلك عن استخدام كافة الوسائل القذرة من غشٍّ وخداع ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، والافتراء على الله وعلى خلق الله ..

بل إن موقف سامية العمودي يذكرني بموقف رابعة العدوية التي امتلأ قلبها بحب الله حبا أنار قلبها ووجدانها وسار على لسانها :

أحبك حبين حــبُّ الهوى وحــبٌّ لأنــك أهـل لذاكا

فأما الذي هو حبُّ الهوى فشغلي بكـرك عـمّن سواك
وأما الذي أنت أهـــل له فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الــحمد في ذا وذاك

ولقد كانت سامية العمودي تلقي درسا عمليا لمجتمعاتنا العربية والاسلامية التي ذبلت فيها جذوة الايمان حتى كادت تنطفي ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ، لم تعلموهم ، لانهارت هذه المجتمعات منذ زمن بعيد ، حتى انتشر الغثاء ، واصبحت الأمة كغثاء السيل ، كما وصفها رسول الهدى والرحمة صلوات ربي وسلامه عليه .

تلقت سامية الرسالة واعتبرتها رسالة حبّ ، ورتبت أمور بيتها وأخبرت أطفالها باسلوب هادئ رصين ، واحترمت قدراتهم وعقولهم رغم صغر سنهم ...

وقررت أن تكسر حاجز الصمت فكتبت مذكراتها واحاسيسها وافكارها في اسلوب شيّق لطيف في مقالها الاسبوعي .. وقامت بخطوة شجاعة جريئة بالتحدث عن اصابتها بالسرطان ... وكان الناس ولا يزالون يتجنبون هذا الموضوع ، بل لا يستطيع الطبيب أن يخبر مريضه بحقيقة هذا المرض ، وخطة العلاج وتوقعات الاطباء من تلك الحالة ... وعلى الطبيب أن ينصاع لضغوط الأهل ، ويبقى الأمر فقط بين أهل المريض الأقربين والاطباء .. وبالتالي يكون العلاج صعبا على المريض والطبيب ، وخاصة أن لهذه العلاجات المختلفة مضاعفات كثيرة ، لا يمكن أن يقبلها الانسان الا إذا عرف خطورة المرض ، وبالتالي يتقبّل هذه العلاجات المؤلمة والمكّلفة على أمل الشفاء بإذن الله تعالى .

وهذا أحد أسباب تأخر التشخيص .. وقد قررت الدكتورة سامية العمودي أن تكسر كل حواجز الصمت والتعتيم. فالسرطان بصورة عامة لا يتم تشخيصه في بلادنا الا في مراحل متأخرة . وبالذات سرطان الثدي ، ومن المؤلم حقا أن الاصابات به تختلف عن كثير من البلدان في أن الاصابات تبدأ في سن مبكرة ، كثير منها يبدأ في سن الثلاثيين ، بينما الاصابات في الغرب متأخرة ومن النادر أن تظهر حالة قبل الأربعين .

والمشكلة الثانية أن التشخيص لا يتم الا وقد انتشر السرطان مما يجعل فرص النجاح في علاجه أقل بكثير مما لو تم التشخيص مبكرا .

لهذا كله قامت الدكتورة سامية العمودي بحملات مكثّفة للكشف المبكر عن سرطان الثدي ، وعمل الأشعة الاستكشافية للثدي (المامو جرام) لألاف النساء في السعودية . ودعمها كثير من الكادر الطبي والصحي والهيئات العالمية لمكافحة السرطان . كما تولت هي إدارة مركز الشيخ محمد حسين العمودي ، لمكافحة سرطان الثدي في جامعة الملك عبد العزيز .

وتحولت حياة الدكتورة سامية العمودي الى عمل ايجابي قوي حيث جعلت حياتها وجهدها وعملها كله في التوعية بسرطان الثدي والكشف المبكر له ، وتوفير العلاج لمن اصيب به .

كانت رسالة حبّ للمجتمع بذلت فيه سامية كل جهدها لتنقذ الألاف من الشبح المخيف سرطان الثدي .

واعترفت بجهودها الهيئات العالمية والمحلية وحصلت على جائزة وزارة الخارجية الأمريكية لشجاعة المرأة عالميا . وتم تكريمها ضمن أشجع عشر نساء على مستوى العالم في 7 مارس 2007

وأخذت سامية العمودي على عاتقها ان تقوم بحملات التوعية في جمع أجهزة الاعلام المقرؤة والمرئية مع حملات توعية مباشرة ، وتنظيم لحملات الكشف المبكر (الماموجرام) على مستوى المملكة العربية السعودية بكاملها .

وحقّ للأمة أن تكرّم سامية العمودي فهي مثال للشجاعة والنبل والعطاء بلا حدود والايمان العميق الذي لا يتزحزح . وكانت بذلك مثالا متجسدا ظهر فجأة من عالم الايمان والصحابة والتابعين وحسن أولئك رفيقا .

نور محمد البار وقصتها مع سرطان الثدي

تبدأ نور قصتها مع السرطان بقولها : " طبيبة أنا وأم لطفل ذي ثلاث سنوات وحامل في الشهر الثالث ، وقبل اسابيع كان يوم ميلادي الثلاثين .

بدأت القصة بكتلة صغيرة لاحظتها مع بداية حملي ولم أعرها بالا في البداية ثم قررت أن أسأل عنها طبيبة الولادة فأحالتني لجرّاحة الثدي " ..

وقامت جرّاحة الثدي بعمل أشعة صوتية والتي أظهرت وجود كتلة في أحد جوانب الحويصلة ولا بد من أخذ عيّنة (خزعة Biopsy)

" وفي تلك اللحظة " تقول نور " نزل فيها عليّ الخبر ثقيلا ثقل الجبل " وكان الاحساس الداخلي بأن هذا الورم هو ما تخشاه .. وعندما فتحت التويتر كانت تجد رسائل الدكتورة سامية العمودي عن تجربتها مع السرطان .

وعندما بدأت تبحث عن نتيجة الخزعة فوجئت بالنتيجة المرعبة : سرطان متعدي من الدرجة الثالثة (أسوأ درجة وأسرعها انتشارا) .

تقول نور " تزغللت الكلمات أمام عيني وسمعت صوتا تبيّن لي أنه صوتي ، كنت اقول بصوت عال : شكرا ياربّ .. الحمد لله الحمد لله الحمد لله " .

واستمرت في حمد الله تعالى مع شهقات بكاء عالية ونفس متسارع ... واتصلت نور بزوجها والذي كان يعمل في نفس المستشفى في بوسطن بالولايات المتحدة وقالت له : النتيجة طلعت ... احتاجك " ... واستمرت في حمد الله تعالى وقالت : اللهم اجرني في مصيبتي ، واخلف لي خيرا منها " ثم انخرطت في البكاء والحمد .

وتقول نور : أذكر تلك اللحظة الآن . وأشكره عليها بعمق .. أشكره ان أنطق لساني بالحمد بغير احساس مني ، فأنا لم أفعل ، بل هو الذي فعل ... أشكره أن أعطاني هذه الفرصة لأتلقى الخبر وحيدة في غرفة مغلقة حيث استطيع البكاء والنحيب بغير أن يراني أحد . ولو تأخرت النتيجة ساعة واحدة لاضطررت أن اتلقاها في عيادة الطبيبة ، في وجود الطبيبة أمامي تقول لي أي كلام لتخفّف عني " .

وذهبت نور للموعد الى الطبيبة مع زوجها بعد ان جفّ نهر الدموع . وحاولت الطبيبة ان تتلطف قبل ان تفاجئها بالخبر ولكن نور أخبرتها أنها تعرف النتيجة فانزاح همّ من على الطبيبة ، وبدأت تناقش الخطوات التي ينبغي ان تعمل .. ودخلت الطبيبة في قنابل من الاخبار المتتالية :

- هل تريدين الاستمرار في الحمل ؟
- الجراحة تعني استئصال الثدي كاملا وليس استئصال الورم فقط
- ستحتاجين للعلاج الكيماوي .. وهذا يعني عدم انتظار الحمل الى نهايته .. واظن أنه يجب عليك ان تجهضي .. وإذا أجهضتي لا أعلم امكانية أن تحملي مرة ثانية بعد العلاج بالكيماوي والاشعة .

تقول نور " مع كل خبر من أخبارها كنت أشعر بوزن ثقيل يسقط على قلبي أكثر وأكثر .. وبداخلي ابتسامة ساخرة : أبهذه السرعة يحدث كل هذا ، بهذه السرعة ؟؟ ، كنت ادرك أكثر فأكثر أن حياتي القديمة قد انتهت " . ولم تكتف الطبيبة بكل هذه الاخبار السيئة بل زادت : وبالنظر لعمرك الصغير علينا أن نفكر في اجراء فحص الجينات ، فإن كان لديك الجين المسبب لسرطان الثدي ، فربما يجب ان نفكر في استئصال الثدي الثاني ، وربما المبايض من باب الاحتياط " .

وانتقدت نور في نفسها هذه الاضافات الاخيرة حيث انها للتو تلقَّت خبر السرطان ، وما ينبغي عمله ، ويمكن أن تأجل الطبيبة موضوع فحص الجينات في مقابلة تالية ...

ورغم ذلك كله كانت نور متماسكة جدا وتسأل أسئلة كثيرة وتناقش الخيارات المتاحة مع الطبيبة الجراحة التي أحالتها الى طبيب الاورام والعلاج الكيماوي .

ودخل طبيب الأورام وكان انسانا نبيلا ، وكانت نور تناقشه في الحلول وتأثير الكيماوي على الحمل ، واخبرته انها تريد ابقاء الحمل (وخاصة بعد ان علمت انها لن تستطيع ان تحمل مرة أخرى في الغالب) . ووافق على ذلك وأن يعطيها بعض الادوية الكيماوية التي لا تؤثر على الجنين ، وذلك بعد أن تظهر فحوصات أخرى ستظهر بعد العملية الجراحية لازالة الثدي المصاب .

وجلست نور بين يدي ربها وقالت : " ياربّ ما هؤلاء الاطباء الا صور انت خلقتهم ، انت أعطيتهم قليل العلم الذي عندهم ، وأنت الذي تسيّرهم وتسخرّهم . ولولا أنك أمرتنا أن نأخذ بالأسباب ، ما ذهبت لطبيب ولا سألت دواء ، ولكنك شئت أن تضع شفاءك في هذه الأسباب التي بين أيدينا . ياربّ أنا أوكلتك أمري ، وأنا أثق فيك وحدك ، لا في الجراح ولا طبيب الأورام ... ألقيت أمري كله بين يديك ، وأنت اعلم بي منْي . وأعلم بما يصلحني ، ويصلح الذي بداخلي منهم ، ياربّ هم في عملهم يتخبطون وأنت القادر على كل شيء ، ياربّ هم في النهاية عاجزون ، وأنت القادر على كل شيء . ياربّ أسألك أن تدبّر لي هذه العملية بما يصلحني ويصلح جنيني من حيث لا نحتسب ولا ندري .. ما طبيبة الجراحة الا أداة في يدك فألهمها ما تقطع وما تدع حتى تزيل كل شيء يجب ازالته ، وتبقي كل شيء يجب ابقاءه حتى لا أجد شيئا من كل المضاعفات التي يثقلون بها كاهلي ، ويحدثونني عنها ، ويخوفونني منها " .

ثم تتحدث نور عن الحكمة في أن تتبدل حياتها بهذه الصورة فتقول نور : " كانت حياتي قبل المرض دوامة أسير فيها معصوبة العينين .. كنت في السنة الأولى من الاختصاص في الطب النفسي . وكان ضغط العمل كبيرا . كان كل ما اعمله خلال اسابيع واسابيع هو الذهاب للعمل في خضمّ الركض السريع . نسيت من أنا وما الهدف من وراء هذا الركض ؟ لماذا تركت أهلي ووطني ، وجئت لأتغرب أنا وزوجي وابني .. لا نجد حتى الوقت لنرى بعضنا بعضا ، وابني ينتقل بين الحضانة (9 ساعات يوميا) الى جليسة الاطفال (Babysitter) الوقت الباقي حتى أعود من العمل .

" كان كل شيء في حياتي سريعا ولا طعم له ... كانت الصلوات تؤدى خطفا حتى أعود للعمل ، وكنت أرى زوجي خطفا كل أسبوع أو اسبوعين بحسب ما تسمح المناوبات ولم أكن أرى ولدي الا لنلبس ثياب النوم وننام . وكان بداخلي شيء يصرخ ليست هذه الحياة التي أريدها . أين المعنى ؟ أين الهدف ؟ اين العطاء ؟ أين العلاقات ؟ أين القراءة والتأمل والعبادة والكتابة ؟ اين ذهب كل ما يعطي لحياتي معنى ؟ "

" كنت أصبّر نفسي انها فترة محدودة لسنتين من الركض ، ثم يقلّ عبء العمل ، ويكون لدي وقت أكثر ، ربما لأتذكر حينها من كنت ، وماذا كنت ، وماذا أريد أن أكون . كنت احتاج بعمق لوقفة أقف فيها مع الله وأخلو به ، واتذكر لماذا كل هذا ؟ اتذكر الهدف والنيّة ، وأعيد اصلاح الدفّة ".

" كنت احتاج لوقفة أقيّم فيها وضعي الحالي ، وهل هو في الاتجاه الصحيح الذي كنت أريد ه ؟ هل أتعلم العلم الذي جئت لأجله أم أني أبذل كل هذا لاسم شهادة البورد الامريكي ، بينما لم اتلقّ من العلم الذي كنت أحلم به الا الشيء اليسير لاني مستهلكة في أعمال روتينية أخرى تخدم العمل ولا تخدم هدفي من العمل" .

" لم أكن لامنح نفسي هذه الوقفة فقد كنت أرى الوقوف انهزاما ... فقد كنت أظن أن القوة في الركض مهما حدث ، فأراد الله ان يعطيني هذه الفرصة ، وقد علم سبحانه أن الحدث يجب أن يكون جللا حتى أقف وأعيد تقييم الأوليات بصدق . وأنا أرى حياتي كلها مهدّدة بالزوال قريبا ، ما لم تحدث معجزة من السماء ، حينما يكون الموت قريبا هكذا تتبدّل الأوليات ، تصغر أمور وتكبر أمور . تصغر الوظيفة والشهادة والسمعة والبورد الامريكي ، بعد أن كانت في حياتي كل شيء .. ويعاد النظر في الأوليات وفي الغايات ، وفي الوسائل للغايات ، فأتذكر ان الشهادة والبورد الامريكي لم تكن في البداية إلا وسيلة للعطاء لنفع الناس ، وللقرب من الله ، فكيف ضاعت الغاية وبهتت حتى تلاشت أمام الوسيلة ."

" بالامس جلست أناجي الله وحدي ، تحدثت طويلا ، وبكيت كثيرا ، وشعرت بفيض من الرحمة والحبّ يغمر قلبي ، فلم أملك ابتسامة واسعة تبللها الدموع . سجدت عندها شاكرة وأنا أفكر : لأجل هذا خلقت !! لأجل هذا القرب !! لأجل هذه السعادة !!" .

وتصف بعدها ليلة العملية بأنها ليلة العيد بدلا من أن تكون ليلة المخاوف والقلق ... فقد أبدل الله خوفها أمنا وانزل عليها السكينة ونامت نوما هنيئا لا تنغصّه الكوابيس والاحلام المزعجة . وتذكرت أيام ليلة العيد عندما كانت صغيرة .. وقارنت ليلتها تلك بليلة العيد . وذهبت في الصباح الى المستشفى لاجراء العملية وهي تخاطب ربها :" ما دمت معي فلن يضرّني شيء أنت حسبي أنت حسبي ونعم الوكيل " .

وكتبت تذكر نعمة استئصال الثدي المصاب ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى حفظ عليها نعمة العقل ، ونعمة الذكر ، ونعمة الخلوة مع الله والحديث معه ، والانس بوجوده ... وكانت لا تمل من حمد الله على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى قائلة : " الحمد لله الذي أحاطني بأهل و أصدقاء يهونون عليّ ويواسونني ويشعرونني بحبهم ، ورزقني والدين دعاؤهما لي خير من الدنيا وما فيها . الحمد لله الذي أنزل عليّ من عظيم لطفه ، واحاطني بعنايته ، واشعرني بقربه ورعايته منذ جاءني الخبر وحتى هذه اللحظة .

الحمد لله الذي مكنّي لابقاء جنيني (الى الآن) فمع ألم الاستيقاظ من العملية بعضو ناقص (الثدي) ، فإن ألم الاستيقاظ من العملية بعد فقد طفلي عمدا أشدّ بكثير ، فاللهم أدم عليّ هذه النعمة وارزقني ان استمر في هذا الحمل حتى النهاية ، واجعله يارب مولودا رضيا تقيا من أولئك الصالحين "

وكتبت تقول : **<u>كيف أشكرك يا ربي ؟</u>** أردت أن اكتب اليك قيل كل شيء لأقول لك لا أدري حقا كيف أشكرك ؟ ما اعظم هذه النعمة التي اوقفتني عن الركض الأعمى لأجل هدف بات مع الايام مسخا لامعالم له . إنك أخذتني من وسط كل الضوضاء والركض والانفاس المتسارعة لأقف في سكون بين يديك ، وأنعم بقربك ، وتغمرني برحمتك ، واستعيد لذة مجالستك يارب . حقا كم من زمن مرّ دون علاقة حقيقية ، وان كنت أصلي لك خمس مرات (يوميا) .

وتقول : " والصور والناس والاحداث توقفت كل محاولة مني للقرب منك فلا أجد نفسي الا أغوص أكثر وأكثر في وحل الغفلة .. فقد كل شيء طعمة بدونك ، وصارت كل الألوان باهتة ، فيالفرحتي بهذا المرض الذي اعطاني الفرصة لأقف وأترك كل شيء خلفي واجلس اليك ، كما كنت قبل سنين .. حقا اشتقت اليك .

" لا أجرؤ الا في بعض الاحيان التي أنت بها أعلم ، أن اسألك أن تجعل الورم يختفي أو تجعله يستجيب للعلاج ، أو ربما لأنني حقا مستمتعة في قربك أليسا سواء . ؟"

" يحدثني الناس وكأنما يريدونني أن أملي عليك شروطي ، ثم أتوقع منك الاستجابة ، فإن لم أفعل فأنا من أهل التشاؤم ولا أتمتع بقوة التفائل .. ولكني حقا لا أجرؤ بعد سنين البعد ، وفي اليوم الذي يتاح لي أن أكون أقرب اليك من أي وقت مضى آتيك بقائمة الطلبات ، وكلها تدور حول ازالة السبب الذي قرّبني منك .
رفعت يدي لأسألك الشفاء فكان أكثر ما استعذبت من دعاء قول أيوب عليه السلام : (ربّ اني مسَّني الضرُّ وأنت ارحم الراحمين) فما أدقه من سؤال ، مسّني الضر . لم يقل أهلكني الضرّ ، كسر ظهري الألم ، لم أعد أحتمل . قالها مهونا من شأن البلاء وهو يعلم انك أعلم به من نفسه ، وانك وحدك تعلم كم يعاني ...

" هذه حالي من الضرّ ، وهذه حالك من الرحمة ، ولن أزيد ، فأنت تعرف كل شيء ، تشعر بألمي ، ترى حالي ، تعلم ما احتاج ، وما يصلح لي في الدنيا والآخرة أكثر من نفسي فلماذا أقول أكثر.

الحمد لله الحمد لله هذا فقط ما ينبغي عليّ ترديده لأني مهما شكرتك لن أفي أبدا شكر نعمة مجالستك بعدَ بعدٍ طويل "